شهد الراوي

طبعة ثالثة

# ساعة بغداد

رواية

Baghdad Clock

دار الحكمة

# الكتاب الأول: طفولة الأشياء الواضحة

دخلت إلى حلمها بقرة، دخلت دراجة هوائية، دخل جسر، دخلت سيارة عسكرية، دخلت غيمة، دخل غراب، دخلت شجرة، دخل طفل، دخلت طائرة، دخل بيت مهجور، دخلت قطة، دخل خزان مياه، دخل شارع، دخلت زرافة، دخلت صورة فوتغرافية، دخلت أغنية، دخلت ساعة جدارية، دخلت سفينة ... وهكذا راحت الأشياء تدخل تباعاً وهي تستعد لتأليف حلم جديد.

تحركت البقرة بعد أن أصابها الملل، تحرك الخروف، تحرك الحصان، تحركت الدراجة الهوائية ثم تحركت الأشياء كلها في دورة من الفوضى ليس لها نهاية ...

هل هذا حلم؟!

دخلت أنا إلى حلمها، ركبت الدراجة الهوائية وطاردت الأشياء المتبقية، طردت كل شيء من رأسها، نظفت حلمها وتركت فيه الساعة الجدارية وخرجتُ.

تشاركت معها الأحلام لأنني لا أحلم في الأصل، لا أعرف لماذا يحلم الناس، وماهي حاجتهم لهذه الأحلام؟!.

## (١)

قبل أن تنهي حكايتها، قاطعتها ونهضت من مكاني وذهبت إلى أمي أسألها:

- ماما، ليش عيوني مو خضر مثل عيون نادية؟

- مِنْ تكبرين تصيرين مثلها.

عدت إلى مكاني أجلس بالقرب من نادية وقلت لها:

- من أصير كبيرة راح تصير عيوني خضر.

- لا متصير، لأن أمك عيونها مو خضر.

- بس أني أطول منك.

وقفت هي على طولها ووقفت أنا إلى جانبها، وضعت كتفي لصق كتفها وسألنا أمها:

- منو أطول؟

قالت أمها:

- أنتِ.

جلسنا على الأرض مرة أخرى،

حكيت لها عن بيت جدتي البعيد فقالت لي: صرت أحبها وصارت تحبني

- لماذا تحبين جدتك؟!

قلت لها:

- لأنني ابنتها.

ضحكت كثيراً غير مصدقة كلامي ولا هي تعرف ماذا تقول لي.

عندما جاء وقت النوم، نامت إلى جانبي على البساط الذي حملناه معنا من البيت. خلعت عنها أمها حذاءها الأسود وجواربها البيض الطويلة وغطتنا سوية وخفضت من ضوء الفانوس وأبعدته عنا.

قبل أن أغمض عينيّ، رأيتها تبتسم وهي نائمة، تحرك شفتيها ببطء كإنها تتحدث مع نفسها. إقتربت منها وأنا مندهشة ووضعت وجهي مباشرة أمام وجهها، شاهدت أطيافاً ملونة تتحرك حول جبينها، خيالات لم أر مثلها من قبل تظهر وتختفي ثم تعود، كنت في هذه اللحظة أرى أحلامها، وهذه أول مرة في حياتي أدخل فيها إلى أحلام أحدهم.

في هذا الوقت، كانت تحلم بي أنا.

أمسكت بيدي وطارت بي عالياً فوق بيوت بغداد القديمة، رحنا نرتفع في الهواء، ونرتفع ونرتفع حتى صرنا مثل نحلتين صغيرتين لا يراهما أحد.

## (٢)

في الليلة الثانية، قبل أن تغيب الشمس بقليل، جئنا مع أهلنا من البيت إلى الملجأ، وقبل أن ندخل رحنا نلعب سوية على درجات السلم الصغير الذي يقودنا إلى داخل المكان. قفزتُ أنا من الدرجة الثانية في الهواء إلى الأرض، صعدت هي وقفزتْ من الدرجة الثالثة في الهواء إلى الأرض، قفزتُ أنا من الدرجة الثالثة، وقفت هي على حافة الدرجة الرابعة وترددت، غيرت رأيها ونزلت من السلّم لإنها لا تستطيع القفز من مكان مرتفع. جاء الأولاد الذين كانوا يلعبون قريباً من الباب، صعدوا السلّم واحداً بعد الآخر وراحوا يتقافزون وهم يضحكون.

في هذه الأثناء، دوّت صافرة الإنذار التي لا أحب صوتها، ولا يحب صوتها أحد من الناس. أمسكت بيدها وهربنا نحو المكان الذي تجلس فيه أمي وأمها، تعثرت قدماها بالفانوس الكبير الذي يتوسط أرض الملجأ وانكسرت زجاجته، سال النفط على البلاطات، ومشت النار خطوات على الأرض الرطبة، تجمدنا في مكاننا وسط الظلام، بينما ظلالنا يحركها وهج الضوء على الجدار الإسمنتي في الجهة المقابلة.

بعد قليل، سمعنا أصوات القصف الشديدة التي أعقبت صافرة الإنذار، إنفجارات عنيفة تقترب منا شيئاً فشيئاً ثم تعود لتبتعد، تقترب مرة أخرى وتبتعد، تموجت الأرض بنا مثل بساط خفيف. في هذا الوقت، إنشغلت أمهاتنا مع أنفسهن بقراءة الأدعية وترتيل سور

من القرآن وفكرت أنا أن أختفي من هذا العالم، نهضت أمشي في الظلام وإقتربت من أمي:

- ماما؟

- نعم يا حبيبتي.

- تعرفين ماذا أريد منك؟

- ماذا تريدين؟

- أريد أن لا أكون موجودة في هذا العالم.

قبل أن أعود إلى مكاني، أشعل أحدهم سيجارته بعود ثقاب، شاهدت ظلي يتحرك على الجدار ثم راح يكبر ويتمدد على سقف الملجأ ويتلاشى، بقيت واقفة في مكاني أفكر بظلي.... إلى أين ذهب في هذا الوقت؟! أين تختفي ظلالنا من هذه الحياة؟! هل أنا في الحقيقة ظل نفسي؟

إن روحي تعيش فيه وهي تختفي معه لإنها لا تحب أن تكون موجودة في هذا العالم.

كنت اتمنى أن يشعل أحدهم عود ثقاب آخر، لكي يعود ظلي واتحدث معه. أحببت أن أسأله: كيف يستطيع أن يختفي من دون أن نراه؟ لكنني تذكرت إن الظلال ليس لها صوت، فعدت إلى مكاني أقترب من نادية ببطء، لم أكن أراها بسبب شدة الظلام، لكني كنت أعرف إنها موجودة في مكانها.

ذهبت الطائرات بعيداً. ذهب معها الخوف وجاء وقت النوم. تمددت على بساطنا الصغير بخطوطه الملونة وحشرت هي نفسها إلى جانبي ونامت. كانت الأرض باردة تنخر عظامنا، وضعت أمي فوق جسدينا غطاء ثقيلاً ودثرت أقدامنا جيداً وشعرت لحظتها بالدفء.

لم أنم هذه الليلة أيضاً، كنت أراقب حلمها، إنها لعبة مسلية أن تراقب أحلام أحدهم وهو غارق في النوم. في الصباح حكيت لها عن الحلم فاستغربت مني وقالت:

- يا مكروهة ليش تبوگين أحلامي؟

- لأن آني ما أعرف أحلم.

حاولت كثيراً في حياتي أن أنسخ أحلامها الجميلة وألصقها في نومي، لكنني فشلت. أكتفيت بمراقبة هذه الأحلام، وعندما أجدها تحلم أحلاماً مزعجة، أنظف رأسها وأطرد الأشياء التي لا تحبها.

في بطن هذا الملجأ الذي يشبه حوتاً كونكريتياً كبيراً تتحرك على جدرانه خيالاتنا، في المكان الرطب المحصن ضد الحرب، تعرفت على نادية في كانون الثاني عام ١٩٩١ عندما كانت سماء بغداد تحترق بالطائرات والصواريخ.

قضينا أكثر من عشرين ليلة في الملجأ، عشنا خلالها الخوف، والبرد، والترقب، واللهو، واللعب، والأحلام، لم نكن نعرف وقتها ماذا كان يجري من حولنا، لم نفهم ساعتها ماذا كانت تعني الحرب.

مرة، وقبل أن نجلس على بساطنا، جاء عمو شوكت يمشي نحونا وهو يبتسم، هو هكذا يبتسم كل الوقت، قرص نادية من أذنها قرصة خفيفة، تناول معصمها الأيسر وطبع عليه بأسنانه ساعة صغيرة، ثم أخذ يدي اليسرى وفعل الشيء نفسه. إقتربت منهُ زوجته باجي نادرة وهي تقول له:

- لا تفعل هذا.

قبلتنا باجي نادرة بحنان وأعتذرت منا، كنا نبتسم لها وفي الوقت نفسه، ننظر إلى الساعة المطبوعة على الجلد وهي تختفي تدريجياً.

عاد عمو شوكت إلى مكانه وجلس مع مجموعة من الرجال حول راديو صغير يبث وشوشات بعيدة. ذهبت زوجته وجلست بين أمي وأم نادية.

بعد قليل، إقتربت منهنّ نساء كثيرات وجلسن معهن يتحدثن عن الحرب. جاءت بنات صغيرات وجلسن معنا، اتذكر مروة، وبيداء، ووجدان، وريتا، وملائكة التي تسميها نادية الشيطانة من دون سبب أعرفه:

- آني مو شيطانة.

- لا إنتِ شيطانة.

بكت ملائكة وراحت تجلس قريباً من أمها وهي تؤشر نحونا بأصبعها وتقول لها كلمات لا نسمعها.

نهضنا أنا ونادية من مكاننا نتجول في زوايا الملجأ، نعد الوجوه على ضوء الفوانيس، كنا نريد أن نعرف الناس الذين نعيش بقربهم في محلة واحدة، هذه أم ريتا، هذا أبو مناف، وهذا مناف وهذه أخته منال، وهذا أخوه الصغير غسان ينام في حضن أمه. هذه أم مروة، وهذا أخوها مروان. هذه هند، وذاك أبوها وتلك أمها. هذا نزار وهذا أبوه وتلك أمه. هذه ميادة وأهلها وهذه أم علي وبناتها الكبيرات، أم علي ليست لديها بنت صغيرة تجلس معنا. هؤلاء بيت أم سالي. هذه وجدان وهذه أمها وأخواتها. هذا فاروق وأمه وأبوه. هذه أم ملائكة واسمها هيفاء وهذا هو أبوها واسمه أسامة وهذا هو جدها، أما جدتها فهي نائمة كل الوقت وتغطي وجهها بعباءتها السوداء. هذا أحمد وأمه، أبوه لم يأت معهما لأنه شهيد.

# (٣)

في خيالي، أعدت الناس الذين شاهدتهم في الملجأ إلى بيوتهم في شارعنا، رتبت تلك البيوت في خطوط مستقيمة ورسمت منها سفينة كبيرة تشبه المحلة التي ولدنا فيها، ثم رسمت دخاناً أبيض يصعد ببطء نحو الغيوم.

صرتُ أعرف كل البيوت، أعرف الآباء والأمهات والابناء والبنات، صارت المحلة في رأسي عالماً هندسياً من الخطوط، والمربعات، والمستطيلات. بمجرد أن يسألني أحدهم عن أي بيت، أقول له بسرعة وأنا أغمضُ عيني:

- إن هذا البيت، هو رابع بيت من الجهة المقابلة.

لم تعد المحلة بعد هذا الوقت، ذلك الشيء الذي كنت اتخيله فضاء واسعاً بحدود لانهائية، صارت واضحة وصغيرة. فنحن عندما نعرف الأشياء، تفقد هذه الأشياء حجمها وتصير صغيرة. لكي أوضح لكم هذه الفكرة، ساضرب لكم مثلاً على ذلك: عندما تصبحون في المدرسة وتعرفون حجم المجرات فإن الكرة الأرضية تصبح في نظركم كرة صغيرة. حتى القمر، حتى الشمس، كلها تصبح في نظركم أشياء صغيرة، أليس هذا صحيحاً؟ الأشياء الكبيرة هي الأشياء التي عندما لا نعرف حدودها ونتخيلها.

هل أصبحت فكرتي واضحة؟ بعض الأفكار تحتاج إلى توضيح، لإننا في البداية نفكر بها لوحدنا. تولد الفكرة في أول الأمر من

خيالنا وعندما نريد أن نتحدث عنها للآخرين، لا نعرف كيف نجعلهم يعرفونها تماماً مثلما نعرفها نحن، لذلك نحن نحتاج إلى توضيحها ونستخدم لهذا الغرض أمثلة بسيطة. فمثلاً، هناك شخص يريد أن يصنع دراجة هوائية، لنفرض إنه أول من صنع دراجة هوائية. في البداية ولدت هذه الفكرة في رأسه ثم رسمها في خياله وقال مع نفسه: إذا لم تتحرك هذه الدراجة ستسقط على الأرض. شرح هذه الفكرة لصديقه لكن صديقه لم يستوعبها وقال له: أنا واقف لكنني لا أسقط، لا أحتاج ياصديقي أن اتحرك لكي لا أسقط. فرد عليه صديقه الذي صنع الدراجة: هذا صحيح، ولكن هل تستطيع أن تجعل العجلة واقفة دون أن تسقط؟ العجلة لا تسقط عندما تتحرك. فرد عليه صديقه: الآن فهمت فكرتك، وهكذا نحن دائماً نحتاج أن نوضح الأفكار للآخرين.

عندما إنتهت الحرب، لم نعد نذهب إلى الملجأ في كل مساء، صرتُ أقضي بعض الوقت في بيت نادية، أو تأتي هي إلى بيتنا لنلعب سوية. مرات نخرج إلى الشارع لوحدنا ولكننا لا نذهب بعيداً. نعد البيوت بيتاً بيتاً ونشخبط على جدرانها بالطباشير، نرسم وجوهاً بيضوية كبيرة ونرسم معها أطرافاً صغيرة وأصابع ملونة. رسمنا عمو شوكت يجلس على الأريكة وهو يلبس نظارته وإلى جانبه تجلس باجي نادرة وهي تضحك، رسمنا فوق رأسهم عصفوراً صغيراً بدون قفص، رسمنا أم ريتا وهي تربط ساعدها المكسورة إلى عنقها، رسمنا قطة بيت أم مناف وهي تنظر إلينا، رسمنا (أبو أحمد) يطير بين الغيوم رغم إننا لم نره من قبل.

في يوم من الأيام، كان ذلك على الأغلب يوم جمعة من شهر

نيسان، ذهبت مع أهلي إلى حديقة الزوراء، كان معنا أهل نادية وبيداء وأمها، لأنني لا اتذكر إذا كان أبوها معنا. جلسنا على العشب نتناول طعامنا الذي جلبناه من البيت. بعد قليل تركنا أهلنا يجلسون وركضنا نحن الثلاثة بين الأشجار نصطاد الدعاسيق، وعندما أصبحنا قريبين من حديقة الحيوانات رمينا بعض الطعام إلى الزرافات الجائعة التي تعيش في أقفاص كبيرة.

قالت بيداء وهي تشير بإصبعها نحو بناية دائرية عالية:

ـ هذا برج الزوراء.

قلت لها:

ـ لكنه أصغر من برج المأمون.

ـ أجابت نادية وهي متأكدة من كلامها: برج المأمون يكبر كل يوم.

في العيد، ذهبت نادية عند بيت خالتها وذهبت أنا مع أهلي عند بيت عمتي، عادت هي تحكي لي قصصاً سمعتها من خالتها وأحكي لها قصصاً من رأسي. عندما جاء الشتاء ونزل المطر ذهبنا إلى المدرسة، رفعت يدي وقلت للمعلمة:

ـ ست أريد أگعد يم نادية بنفس الرحلة.

سألتني المعلمة:

ـ نادية أم العيون الخضر؟

ـ نعم ست هي صديقتي، وآني من أكبر هم تصير عيوني خضر مثلها.

ضحكت المعلمة لكنني لم أضحك. المعلمات أحياناً يضحكن بلا سبب. ذهبت وجلست مع نادية في رحلة واحدة، كانت هذه الرحلة قريبة من نافذة يدخل منها الهواء البارد. أفرك يدي بقوة من شدة

البرد وتفرك نادية أصابعها. محوت أخطائي الإملائية وأنا أستخدم ممحاتها الملونة التي كلما محوت بها الحروف غير الصحيحة تخرج منها رائحة أحبها، أنا أحب الأخطاء كثيراً لأنني أستطيع أن أمحوها.

نادية دائماً تنسى وأنا دائماً اتذكر، عندما تسرح أحياناً أقول لها إنتبهي، وعندما أنام على الرحلة تقول لي: لا تنامي.

كنا في شهر تشرين الثاني، حين خرجنا مرة من المدرسة إلى البيت وأنا أريد أن أختفي من شدة البرد، عثرت نادية فوق الرصيف على قطة عمياء صغيرة وبيضاء اللون، كانت مبللة وترتجف، ناولتني نادية حقيبتها وحملت القطة في حضنها.

أما كيف عرفنا إنها عمياء، فهذه مسألة ليست معقدة، إذا وجدت قطة صغيرة وحركت أصبعك أمام عينيها ولم تلقت يمنياً ويساراً فهذا يعني إنها لا ترى.

في الحديقة، بنينا لها كوخاً صغيراً تحت شجرة الزيتون وتركناها تنام فيه. كانت أم نادية تراقبنا من النافذة، نادت علينا ودخلنا بيتهم:

- شعدكم بالحديقة والدنيا باردة؟

- عدنا بزونة راح تموت من البرد.

أعطتنا طعاماً لقطتنا وضعناه أمامها وجلسنا نراقبها ونحن مازلنا نرتجف من شدة البرد. شمت القطة الطعام وأدارت وجهها بعيداً عنه، دفعنا الصحن قريباً من فمها مرة أخرى ولكنها لم تأكل منه شيئاً.

بعد قليل، جاءت أمي تبحث عني فوجدتني ألعب في حديقتهم، كانت خائفة لأنني تأخرت على موعد وصولي إلى البيت، استغربت أنا لحظتها:

كيف عرفت أمي إنني تأخرت هذا اليوم؟!

لم أكن أعرف من الوقت سوى الساعة السابعة والنصف حين يدق جرس المدرسة في بداية الدوام. أعرف الساعة الواحدة أيضاً حين يدق مرة ثانية في نهاية الدوام لنخرج إلى البيت. كان هناك وقت آخر لا أعرفه، وقت طويل جداً، يبدأ بعد الواحدة ظهراً حتى الساعة السابعة والنصف صباحاً. الكبار يستخدمون وقتاً آخر نحن لا نعرفه.

أخذتني أمي من يدي وهي غاضبة مني وأنا أبكي من الخوف، هذه أول مرة أخاف فيها من أمي. تبعتني نادية وهي تركض وراءنا، وعندما شاهدت دموعي بكت هي الأخرى. كانت أم مناف تقف بباب بيتها وتراقبنا، أم مناف دائماً تقف في باب بيتها وتراقب الجيران، حتى عندما أذهب إلى المدرسة في الصباح أراها واقفة في باب البيت تراقب الناس. خجلت أمي من هذا الموقف، دخلنا بيتنا وغيرت ملابسي في الحال، وعندما تناولت الغداء أخذتني ثانية إلى بيت نادية وتركتني عندهم. لعبنا أنا وهي في حديقتهم حتى المساء، حملنا خرقاً كثيرة وبعضاً من قطع الكارتون السميكة وغطينا كوخ القطة العمياء وقلنا لها: نامي فنامت.

في تلك الليلة، حلمت نادية بأنني صرت قطة بيضاء مبللة وأرتجف من البرد. في الصباح، إكتشفت إن قطتها أختفت من بيتها الصغير الذي بنيناه لها بالأمس ولم تعثر عليها بعد ذلك اليوم.

كيف يمكن لقطة صغيرة وعمياء أن تهرب في الظلام؟! هل تصدقونني عندما أقول لكم إن هذا الشيء قد حصل معنا؟

أغمضت عيني لأرى العالم مثلما تراه قطة عمياء، رأيت فراغاً هائلاً يحيطه غشاء أصفر خفيف تتحرك فيه خيالات من ضوء خافت ترسم دوائر تبدأ صغيرة ثم تتسع وتتسع وتختفي. القطة العمياء،

تعيش في عالم من الدوائر التي تتسع ثم تتسع ثم تختفي.

كانت أحلام نادية في تلك الأيام تشبه الرسوم المتحركة، في كل مرة تجد نفسها متورطة في أماكن عالية ولا تستطيع أن تحرك قدميها، تنادي على أمها بأعلى صوتها لكن أمها لاتسمعها، تنظر نحو الهاوية العميقة من حولها وتسقط ولكنها لا تموت.

في بعض أحلامها، يتغير لون عينيها الخضروايين، هي تحب كثيراً لون عينيها ولا تحب أن يتغير. عندما تستيقظ من النوم كل صباح تذهب إلى المرآة تتأكد من إنهما خضروان كما كانا قبل أن تذهب إلى السرير فتضحك مع نفسها.

كنت أدخل أحلامها كما أخبرتكم في البداية، أعيش فيها من دون أن يراني أحد، حتى لوناديت عليهم بأعلى صوتي أو مسكت بيد أحدهم فهم لا يرونني. فقط مرة واحدة حدث معي ما لم أكن اتوقعه، كانت ملائكة الشيطانة تجلس في أحد الأحلام قريباً من سياج بيتهم، وعندما إقتربت منها صفعتني على خدي من دون أن أشعر بأي ألم.

عندما أحاول أن اتذكر تلك الأيام، فأنا اتذكر منها الأيام الشديدة البرد أو الأيام التي ينزل فيها المطر، أما أيام الصيف فأتذكر منها فقط الليالي التي كنا ننام فيها فوق سطح البيت. اتذكر كل تلك الليالي كأنها ليلة واحدة، ليلة أعد فيها النجوم البعيدة، وعندما أنام، تسقط هذه النجوم في الحديقة، لذلك سيكون المطر كثيفاً في حكايتي وكأن شمس الصيف الحارقة لم تكن موجودة.

في بيت جدتي البعيد، كانت النجوم أقرب من النجوم التي فوق بيتنا، ذهبنا إلى هذا البيت، قبل أن تبدأ الحرب بثمانية أيام، كان

ذلك أيضاً في كانون الثاني عام ١٩٩١. كنا نخاف من الحرب وقرر أبي أن نذهب عندها لنحتمي من الصواريخ لأن جدتي لا تخاف من الحرب والحرب لا تراها.

بيت جدتي واسع تحيط به أشجار عالية تجري بينها سواقٍ صغيرة تتقافز فيها ضفادع خضر. في البركة الصغيرة التي وراء السياج تسبح بطتان بيضاوان يتبعهما صغارهما الأربعة أو الخمسة. أنا لا اتذكر عدد البطات الصغيرة، لكنني اتذكر إنها تمشي فوق الماء ولا تتبلل. على حافة البركة، كانت تجلس قطة رمادية اللون ليست عمياء وليست مبللة. تراقب صغار البط وتمد لسانها في الماء البارد، عندما أقترب منها تهرب بين الأشجار وتختفي.

حتى إذا كانت الدنيا باردة جداً، تنهض جدتي فجر كل يوم وتصلي في الظلام لأن الله يستطيع أن يراها وهي تصلي في الظلام. تتحدث جدتي مع النجوم وعندما تصعد الشمس وراء نخلاتها الأربعة، تدخل المطبخ وتعد لنا الفطور، كان فطورها شهياً ولذيذاً، لم اتذوق مثل طعمه في حياتي كلها.

جدتي تحبني، وتدللني، وتهتم بي كثيراً. كنت اتمنى أن تكون هي أمي وفرحت كثيراً عندما أخبرتني سراً بقي بيننا الى الآن:

- حملتك في بطني هذه، قبل أن تولد أمك منها.

في الليل، أنام معها على سريرها العريض وهو يسبح بنا في الفراغ. لم أكن أرى أحلامها، جدتي لا تحلم، عيونها ليست خضراً. عندما تغفو ويدها تحت خدها فهي لا تبتسم ولا تتحدث مع نفسها، هي فقط تنام لكي تدخل النجوم من نافذتها وتدور حول صورة جدي المعلقة على الجدار لكي تحرسنا من اللصوص. أنا لا أعرف

جدي وهو لا يعرفني رغم إنني أحبه وأتمنى أن أراه ويراني، لكنه موجود في الصورة منذ زمن بعيد وبقي فيها وهو ينظر إلينا من دون أن يقول كلمة واحدة. في أول مرة رأيت فيها صورته، قلت لجدتي من هذا؟ قالت لي: هذا هارون الرشيد، فضحكت خالتي، وضحك أبي، وضحكت أمي، ولم أضحك أنا؛ بعد قليل قال لي أبي: هذا جدك.

بعيداً عن البيت، في الجانب الآخر من البستان، تدور ساعات خشبية كبيرة اسمها النواعير، تأخذ الماء من النهر وتسكبه في السواقي. النواعير قريبة من النهر، لكنني لم أر النهر، على الرغم من إنه كان قريباً من البيت. في الليل تأتيني من النهر رائحة الأسماك الصغيرة وأغاني الناس الذين غرقوا في قديم الزمان.

نادية أيضاً، لم تر النهر في حياتها. مرة كنا أنا وهي نركض في الساحة الداخلية للمدرسة وكانت تغني:

ـ عبرت الشط على مودك.

جاءت صديقتنا مروة وقالت لنا:

ـ الشط يعني النهر.

بعد أيام، ذهبت نادية مع أهلها إلى بيت أقاربها في جانب الرصافة من مدينة بغداد، عبرت سيارتهم فوق النهر، شاهدت جسوراً ميتة قتلتها الطائرات، شاهدت الموجات والسمكات والقوارب الصغيرة، تنفست رائحة النهر وأحبتها. في تلك الليلة، حلمت إن حقيبتها سقطت في الماء وأخذتها الموجات بعيداً فجاء طائر أبيض وسرقها، قالت لها مروة في ساحة المدرسة:

ـ أنت تكذبين، الطيور لا تسرق الحقائب لأنها لا تقرأ ولا تكتب.

ـ نادية لا تكذب، أنا شاهدت ذلك أيضاً في حلمها.

ـ كيف تشاهدين حلمها؟ أنت الأخرى تكذبين مثلها.

## (٤)

في الصف الرابع الإبتدائي صرت طويلة، أطول من نادية، لكن عينيّ ليستا خضراوين، بقي لونهما كما كان عندما كنت صغيرة، لم تكن أمي تكذب حينها، لقد كبرت أنا وتركتهما كما هما. أمي لم تكن تكذب، أنا غيرت رأيي، لا أريد أن تكون عيناي خضراوين. العيون الخضر ترى العالم كما نراه نحن، نادية لا ترى كل شيء أخضر، أنا لست خضراء، بيتنا ليس أخضر، السماء ليست خضراء لكن الأشجار خضر والعشب أخضر.

أنا أطول من نادية، أرى الأشياء من بعيد، والأشياء التى لا أراها اتخيلها، وإذا أردتم الحقيقة، أنا أحب الأشياء التي اتخيلها أكثر من الأشياء التي أراها. وعندما قررت في أحد الأيام أن أرى نهر دجلة، صعدت سلم البيت إلى السطح لأن النهر كان بعيداً، فنحن عندما نصعد فوق سطح البيت نرى الأشياء البعيدة. وقفت فوق خزان المياه في الطابق الثاني، درت في كل الإتجاهات لكنني لم أر نهر دجلة ولا أي نهر آخر، رأيت جسوراً كثيرة وبنايات وأشجاراً عالية وطيوراً تحلق في السماء.

قبل أن أنسى، دعوني أصف لكم ما رأيت أيضاً في ذلك المساء، رأيت محيطاً هائلاً من الفراغ ليس له نهاية، في هذا المحيط الشاسع من الآفاق المترامية الأطراف تحت شمس الغروب شاهدت محلتنا كإنها سفينة ترسو عند شاطيء المحيط، سفينة عملاقة يتوسطها برج المأمون مثل شراعها العالي وساعة بغداد كانت تشبه المرساة الملقاة على رصيف الميناء وبرج الزوراء هو مثل قمرة قيادة هذه السفينة.

فكرت مع نفسي: في يوم ما، عندما تتحرك هذه السفينة من مكانها وتنفث بخارها الأبيض في السماء، ستجأر محركاتها العملاقة، ثم تدّوي في أرجائها إشارة الإنطلاق، ويصعد الجميع على متنها في رحلة طويلة نحو جزيرة الآمان، نحو مرافيء لم يصلها أحد من قبل. ستبتعد هذه السفينة وتبتعد وتبتعد حتى يتلاشى أثرها وراء ضباب كثيف من النسيان.

نسيت أن أخبركم عن أمر آخر، إنني وقبل أيام، كنت أخرج من باب المدرسة بعد نهاية الدوام، كان ذلك في شهر شباط، عندما سمعت موسيقى عالية تنطلق في السماء، موسيقى اتصور إن أغلبكم كان يسمعها في تلك الأيام من التلفزيون أو من الراديو.

- تن تن تنْ تنْ... تن تن تن تن.

هل تتذكرونها؟ أنا اتذكرها، أنا لا أعرف كم هو عمركم الآن، ولكن إذا كنتم في بغداد عام ١٩٩٤ ستتذكرونها، كل من كان في بغداد عام ١٩٩٤ سيتذكرها.

بعد أسبوع أو أكثر، أخذونا من المدرسة في رحلة إلى بناية الساعة الجديدة التي اسمها (ساعة بغداد)، تجولنا في القاعات والحدائق، ثم أخذونا إلى المتحف الذي فيه واجهات زجاجية نظيفة، يعرضون

فيها هدايا يقدمها الناس لرئيس الجمهورية، يقدمون له سيوفاً تراثية وبنادق قديمة ولوحات فنية ويكتبون له قصائد عن سيرته. شاهدنا منحوتات وأختاماً صغيرة من الطين تحكي قصصاً عن الناس القدماء الذين عاشوا قبلنا بآلآف السنين في العراق.

أحدهم رسم صورة كبيرة للرئيس ومعها صورة أكبر لهارون الرشيد، قلت للمعلمة: هارون الرشيد جدي، قالت المعلمة: أعرف ذلك، إنه يشبهك، وضحكت من كل قلبها.

بعض النساء الفقيرات، ليس لديهن ما يقدمنه هدية للرئيس، قصصن ضفائرهن وكتبن عليها اسماءهن ووضعنها في المتحف، أنا لا أعرف ماذا يفعل الرئيس بضفائر النساء.

دقت الساعة العاشرة صباحاً، وكان صوتها عالياً هذه المرة:

بين الشعب وبينك... عهد وشفته بعينك.

وقفنا في حديقتها الأمامية صفاً واحداً نلتقط صورة تذكارية تحت الساعة العاشرة وعشر دقائق. هذه الصورة، ستبقى هي الصورة الوحيدة التي تجمعنا بالترتيب، أنا ونادية وأحمد وفاروق وبيداء ومروة ووجدان وريتا ومناف مع بقية طلاب صفنا.

على يمين الصورة، كانت ست نجاح تقف بشعرها الأشقر وقميصها الأحمر وهي تضع كفها على كتفي وتبتسم للكاميرا، كم أحب ست نجاح، وأحب أن تضع يدها على كتفي دائماً، هي معلمة طيبة تحبنا كلنا وتضحك معنا، وعندما يأتي زوجها الذي يلبس ملابس الطيارين بسيارته البيضاء وينتظرها بباب المدرسة، نسلم عليه فيضحك هو الآخر معنا.

حلمت نادية إنها تركض في حديقة ساعة بغداد، تعثرت قدمها

جدي وهو لا يعرفني رغم إنني أحبه وأتمنى أن أراه ويراني، لكنه موجود في الصورة منذ زمن بعيد وبقي فيها وهو ينظر إلينا من دون أن يقول كلمة واحدة. في أول مرة رأيت فيها صورته، قلت لجدتي من هذا؟ قالت لي: هذا هارون الرشيد، فضحكت خالتي، وضحك أبي، وضحكت أمي، ولم أضحك أنا؛ بعد قليل قال لي أبي: هذا جدك.

بعيداً عن البيت، في الجانب الآخر من البستان، تدور ساعات خشبية كبيرة اسمها النواعير، تأخذ الماء من النهر وتسكبه في السواقي. النواعير قريبة من النهر، لكنني لم أر النهر، على الرغم من إنه كان قريباً من البيت. في الليل تأتيني من النهر رائحة الأسماك الصغيرة وأغاني الناس الذين غرقوا في قديم الزمان.

نادية أيضاً، لم تر النهر في حياتها. مرة كنا أنا وهي نركض في الساحة الداخلية للمدرسة وكانت تغني:

ـ عبرت الشط على مودك.

جاءت صديقتنا مروة وقالت لنا:

ـ الشط يعني النهر.

بعد أيام، ذهبت نادية مع أهلها إلى بيت أقاربها في جانب الرصافة من مدينة بغداد، عبرت سيارتهم فوق النهر، شاهدت جسوراً ميتة قتلتها الطائرات، شاهدت الموجات والسمكات والقوارب الصغيرة، تنفست رائحة النهر وأحبتها. في تلك الليلة، حلمت إن حقيبتها سقطت في الماء وأخذتها الموجات بعيداً فجاء طائر أبيض وسرقها، قالت لها مروة في ساحة المدرسة:

ـ أنت تكذبين، الطيور لا تسرق الحقائب لأنها لا تقرأ ولا تكتب.

ـ نادية لا تكذب، أنا شاهدت ذلك أيضاً في حلمها.

ـ كيف تشاهدين حلمها؟ أنت الأخرى تكذبين مثلها.

## (٤)

في الصف الرابع الإبتدائي صرت طويلة، أطول من نادية، لكن عينيّ ليستا خضراوين، بقي لونهما كما كان عندما كنت صغيرة، لم تكن أمي تكذب حينها، لقد كبرت أنا وتركتهما كما هما، أمي لم تكن تكذب، أنا غيرت رأيي، لا أريد أن تكون عيناي خضراوين. العيون الخضر ترى العالم كما نراه نحن، نادية لا ترى كل شيء أخضر، أنا لست خضراء، بيتنا ليس أخضر، السماء ليست خضراء لكن الأشجار خضر والعشب أخضر.

أنا أطول من نادية، أرى الأشياء من بعيد، والأشياء التى لا أراها اتخيلها، وإذا أردتم الحقيقة، أنا أحب الأشياء التي اتخيلها أكثر من الأشياء التي أراها. وعندما قررت في أحد الأيام أن أرى نهر دجلة، صعدت سلم البيت إلى السطح لأن النهر كان بعيداً، فنحن عندما نصعد فوق سطح البيت نرى الأشياء البعيدة. وقفت فوق خزان المياه في الطابق الثاني، درت في كل الإتجاهات لكنني لم أر نهر دجلة ولا أي نهر آخر، رأيت جسوراً كثيرة وبنايات وأشجاراً عالية وطيوراً تحلق في السماء.

قبل أن أنسى، دعوني أصف لكم ما رأيت أيضاً في ذلك المساء،
رأيت محيطاً هائلاً من الفراغ ليس له نهاية، في هذا المحيط الشاسع
من الآفاق المترامية الأطراف تحت شمس الغروب شاهدت محلتنا
كإنها سفينة ترسو عند شاطيء المحيط، سفينة عملاقة يتوسطها برج
المأمون مثل شراعها العالي وساعة بغداد كانت تشبه المرساة الملقاة
على رصيف الميناء وبرج الزوراء هو مثل قمرة قيادة هذه السفينة.

فكرت مع نفسي: في يوم ما، عندما تتحرك هذه السفينة من
مكانها وتنفث بخارها الأبيض في السماء، ستجأر محركاتها العملاقة،
ثم تدّوي في أرجائها إشارة الإنطلاق، ويصعد الجميع على متنها في
رحلة طويلة نحو جزيرة الآمان، نحو مرافيء لم يصلها أحد من قبل.
ستبتعد هذه السفينة وتبتعد وتبتعد حتى يتلاشى أثرها وراء ضباب
كثيف من النسيان.

نسيت أن أخبركم عن أمر آخر، إنني وقبل أيام، كنت أخرج
من باب المدرسة بعد نهاية الدوام، كان ذلك في شهر شباط، عندما
سمعت موسيقى عالية تنطلق في السماء، موسيقى اتصور إن أغلبكم
كان يسمعها في تلك الأيام من التلفزيون أو من الراديو.

- تن تن تنْ تنْ... تن تن تن تن.

هل تتذكرونها؟ أنا اتذكرها، أنا لا أعرف كم هو عمركم الآن،
ولكن إذا كنتم في بغداد عام ١٩٩٤ ستتذكرونها، كل من كان في بغداد
عام ١٩٩٤ سيتذكرها.

بعد أسبوع أو أكثر، أخذونا من المدرسة في رحلة إلى بناية الساعة
الجديدة التي اسمها (ساعة بغداد)، تجولنا في القاعات والحدائق،
ثم أخذونا إلى المتحف الذي فيه واجهات زجاجية نظيفة، يعرضون

فيها هدايا يقدمها الناس لرئيس الجمهورية، يقدمون له سيوفاً تراثية وبنادق قديمة ولوحات فنية ويكتبون له قصائد عن سيرته. شاهدنا منحوتات وأختاماً صغيرة من الطين تحكي قصصاً عن الناس القدماء الذين عاشوا قبلنا بآلاف السنين في العراق.

أحدهم رسم صورة كبيرة للرئيس ومعها صورة أكبر لهارون الرشيد، قلت للمعلمة: هارون الرشيد جدي، قالت المعلمة: أعرف ذلك، إنه يشبهك، وضحكت من كل قلبها.

بعض النساء الفقيرات، ليس لديهن ما يقدمنه هدية للرئيس، قصصن ضفائرهن وكتبن عليها اسماءهن ووضعنها في المتحف، أنا لا أعرف ماذا يفعل الرئيس بضفائر النساء.

دقت الساعة العاشرة صباحاً، وكان صوتها عالياً هذه المرة:

بين الشعب وبينك... عهد وشفته بعينك.

وقفنا في حديقتها الأمامية صفاً واحداً نلتقط صورة تذكارية تحت الساعة العاشرة وعشر دقائق. هذه الصورة، ستبقى هي الصورة الوحيدة التي تجمعنا بالترتيب، أنا ونادية وأحمد وفاروق وبيداء ومروة ووجدان وريتا ومناف مع بقية طلاب صفنا.

على يمين الصورة، كانت ست نجاح تقف بشعرها الأشقر وقميصها الأحمر وهي تضع كفها على كتفي وتبتسم للكاميرا، كم أحب ست نجاح، وأحب أن تضع يدها على كتفي دائماً، هي معلمة طيبة تحبنا كلنا وتضحك معنا، وعندما يأتي زوجها الذي يلبس ملابس الطيارين بسيارته البيضاء وينتظرها بباب المدرسة، نسلم عليه فيضحك هو الآخر معنا.

حلمت نادية إنها تركض في حديقة ساعة بغداد، تعثرت قدمها

وسقطت على العشب وانخدش ساقها، جاء أحمد نحوها، أخرج منديله من جيبه وجلس يشد المنديل على مكان الجرح، هل كان ذلك حلماً أم إنه حقيقة ونسيتها أنا؟

في يوم من الأيام، كنا نذهب إلى المدرسة وكان ذلك في شهر شباط أيضاً، شاهدنا فاروق وهو يرتدي بنطالاً من الجينز وقميصاً أبيض وحذاءً رياضياً من دون أن يحمل معه حقيبة المدرسة، كان منظره هذا غريباً بعض الشيء، قال لنا إنه سيأخذ هذا اليوم إجازة من المدرسة، أبوه سيسافر بعيداً.

جاء أحمد بعد قليل على دراجته وهو يبتسم ويغني مع نفسه، إلتفت إلى نادية وقال لها:

- عندي قطة عيونها خضر.

- كذاب ما عندك.

أخرجت نادية طبشوراً من حقيبتها وكتبت على جدار المدرسة بحروف كبيرة:

سَرَقَ أَحمدُ قِطتَنا.

بعد سنوات من الآن، سنمر أنا ونادية من هذا المكان، إلى جانب هذا الجدار نفسه، ونقرأ اسم أحمد، سنتذكره ونضحك. الكلمات التي نكتبها على حائط المدرسة بالطباشير تبقى إلى الأبد لكي نتذكرها ونضحك.

في هذا اليوم نفسه، جاءت ست نجاح إلى صفنا ووزعت بيننا صورتنا الجماعية أمام ساعة بغداد، ضحكنا من مروة، لانها تظهر خلف كتف أحمد مثل ياسمينة في مسلسل السندباد، إكتشفنا في هذه الصورة، إن الساعة كانت تبتسم لنا، قالت بيداء: إنها تضحك علينا.

ضحكت ست نجاح أيضاً.

## (٥)

في الليل وقبل أن أنام، فكرت مع نفسي بساعة بغداد، كيف تقف لوحدها في هذا الظلام من دون أن تخاف؟ تخيلتها وهي تحني رقبتها على كتفها وتغفو. لكن على أية جهة كانت تنام؟ متى تستيقظ؟ هل تشعر بالتعب مثلنا؟ هل لديها أوقات فراغ؟

نام أهلي وأطفأت الأنوار في البيت، نهضت من سريري، أرتديت معطفاً طويلاً من خزانة أمي، مشيت على أطراف أصابعي حتى باب البيت الخارجي. سبقتني قطة بيضاء ليست عمياء وليست مبللة نطت من فوق الباب نحو الرصيف، تجاهلتها وفتحت الباب بهدوء وخرجت إلى الشارع.

عندما وصلت الى رأس الشارع، سمعت صوت سيارة تقترب مني يسبقها ضوء مصابيحها الأمامية، لصقت جسدي على الفور بجدار الدكان. تجاوزتني السيارة وهي تنعطف في الطريق المحاذية لمدرستنا، الطريق نفسها التي وجدنا فيها أنا ونادية القطة العمياء المبللة.

بعدها بلحظات، ساد صمت عميق في كل الإتجاهات، تقدمت نحو جهة الشارع العام من الجانب الثاني ومشيت بإتجاه بناية الساعة.

في منتصف الطريق ترددت، قررت أن أعود إلى البيت وأنام، لكني لا أدري لماذا واصلت سيري في هذا الظلام وأنا لوحدي. بعض الأحيان نفكر في شيء ما ونتصرف عكسه تماماً.

وصلت إلى بناية الساعة، في الليل تكون الساعة أجمل مما هي عليه في النهار، وعندما ندور حولها نستطيع أن نراها من كل مكان، لانها في الحقيقة ليست ساعة واحدة، هي أربع ساعات مربعة الشكل، كل واحدة منها في جهة، لا أدري لماذا لا يسمونها (ساعات بغداد) طالما إنهم يضعون أمام كل واحدة مصباحاً كبيراً على الأرض.

كان العقرب القصير عند الرقم (١) والعقرب الطويل عند الرقم (٩)، في هذا الوقت، كانت نادية تحلم، هي في العادة تحلم في هذا الوقت، كنت اتمنى أن أحمل الساعة وأدخلها في حلمها لكن الحلم كان قصيراً والساعة طويلة.

مشيت قريباً من البناية، التي تشكل نجمة بثمانية أضلاع، ويقف فوقها البرج الطويل الذي نشاهده من بعيد، تراجعت إلى الوراء وجلست على الأرض، جلست خلف المصابيح الكبيرة التي يصدر عنها الضوء.

- تك، تك، تك، تك، تك.

ما فائدة الوقت إن لم يسمع أحدهم صوت حركة بندول الثواني؟ كنت أحب أن اتحدث مع هذا العقرب النحيف الذي يتراجع نصف خطوة للوراء، ثم يتقدم خطوة نحو الأمام وهو سعيد بذلك.

قلت مع نفسي، لماذا يعد الثواني الصغيرة التي لا يستخدمها الناس؟ ثم سألته:

- من يهتم للثواني في هذا الوقت والناس ينامون وأنت لا تتعب؟

- سأتعب يوما ما وأتوقف إلى الأبد.

- متى يكون ذلك؟

- عندما لن تعد هناك سفينة ترسو في هذا المحيط الواسع من الظلام.

بقي عقرب الساعة الصغير متوقفاً عند الرقم (١) والكبير صار عند الرقم (١٢)، نهضت من مكاني، نظفت ملابسي من بقايا آثار العشب الرطب، تلفت من حولي، ثم ركضت مسرعة نحو الشارع العام تطاردني أضواء خافتة لسيارة بعيدة، دارت السيارة فجأة نحو اليسار وعاد الظلام يغطي العالم. رأيت جندياً يحمل بندقية ويحرس المكان لكنه كان ينظر في الجهة الأخرى ولم يرني.

وأنا في طريق العودة، رأيت أمامي مقدمة سفينة عملاقة يتوسطها برج المأمون مثل سارية طويت أشرعتها، من فتحة صغيرة في جانبها، دخلت ممراتها المظلمة وتجولت فيها بحثاً عن أقصر الطرق نحو الحافة المحاذية للمياه، التي يصلني صوت تدافع أمواجها ويصيبني بدوار شديد يكاد يفقدني توازني ويلقيني على الأرض. أنا اسمع صوت الأمواج ويجب أن يصدقني الجميع عندما أحكي لهم عن رحلتي داخل السفينة.

أنا لا أكذب، سأقول لكم ما أراه أو ما اتخيله. عندما كنت اتجول في السفينة كنت أفكر مع نفسي، هل عليّ أن أخبركم بماذا كنت أفكر؟ لأن أغلب الناس يصدقون فقط الأشياء التي تدخل في عقولهم، هم لا يعرفون الأشياء التي لا تدخل في عقولهم.

جاء القبطان، وكان شبه نائم في هذه الساعة وسألني:

- ماذا تفعلين هنا في مثل هذا الوقت؟

قلت له:

ـ أنا أحب أن أركب السفينة وأسافر بعيداً.

ـ لكنك ولدت عليها وإذا أحببت أن تسافري يجب أن تنزلي منها، قال ذلك ثم ذهب بإتجاه غرفة القيادة لينام، ركضت خلفه وناديت عليه:

ـ من أنت؟ أنا لم أرك من قبل في محلتنا ولا أعرفك شخصياً مع إنني أعرف كل الناس في هذا المكان، أشار إليّ بيده أن أنتظره ودخل غرفة القيادة ثم خرج ومعه إبريق من الشاي، أدار لي كوباً صغيراً وأدار لنفسه واحداً آخر وجلس الى مصطبة صغيرة ونظر في وجهي وهو يقول: أين نحن الآن؟

قلت له: نحن على ظهر السفينة.

فقال لي: هل هناك سفينة بدون قبطان.

قلت له: لا أعرف.

فقال لي: هل هناك سيارة تمشي بدون سائق؟

فقلت له: لا.

فقال لي: أنا السائق، أنا من يقود هذه السفينة.

قلت له: ولكن هذه السفينة لا تتحرك.

ضحك وقال لي: أنا سائق السفينة التي لا تتحرك، مهمتي الوحيدة هي أن أجعلها لا تتحرك.

فقلت له: ما فائدة السفينة التي لا تتحرك.

شرب شايه وأدار قدحاً جديداً لنفسه وقال: إنها متوقفة هنا لكي ينزل منها المسافرون.

قلت له: وأين ستذهب أنت إذا نزل منها الجميع.

وقف يحمل قدح الشاي وراح يتكىء على حافة السفينة وهو ينظر نحو ظلام المحيط الذي ليس له نهاية وقال كأنه يتحدث إلى شخص آخر:

ـ اسمعي يا عزيزتي، السفينة فكرة في رأسك وأنا فكرة في رأس السفينة، الأفكار الصغيرة عادة ماتكون لديها أجنحة خفيفة وعندما تفقد جدواها على الأرض تطير في الفضاء، العالم الذي نعيش فيه هو مجرد فكرة صنعها خيال مبدع خلاق وعندما وجدها فكرة معقدة راح يشرحها من خلال أفكار أخرى ولكنها أفكار صغيرة، وهكذا بعد ملايين السنوات إمتلأت السماء بالأفكار التي تطير بأجنحة خفيفة، إن كل ما تقع عليه أعيننا هو مجرد فكرة، لا شيء حقيقياً في الواقع، كلنا مسجونين في خيالنا وإن تجاربنا على أرض الواقع هي عبارة عن أفكار فقط، الوجود كله مجموعة من الأفكار، هذه هي الحقيقة الوحيدة، لا تصدقي غيرها ولا تخبري أحداً بها، لأن الناس لا يصدقون الأشياء التي لا تدخل عقولهم وهم لا يعرفون أين تقع عقولهم، لم يسألوا أنفسهم يوماً هل إنهم حقاً يمتلكون شيئاً اسمه العقل؟ كيف شكله؟ ما هو لونه؟ العقل يا صغيرتي هو الآخر فكرة، فكرة معقدة تجعل من الأفكار الأخرى كأنها حقائق.

لم أفهم كلام القبطان، رغم إنه كان يتحدث معي بصدق، أنا بطبيعتي أعرف الناس الذين يقولون الصدق، أحيانا هناك كلام لا نفهمه، لكننا نعرف المعنى ليس من خلال الكلمات، لأن المعنى موجود بداخلنا قبل أن يحدثنا عنه الآخرون، وإنما موجودة بداخلنا لكنها نائمة لاننا لم نوقظها من قبل، بعض المعاني التي لا نفهمها فتأتي الكلمات وتوقظها.

في كثير من الأوقات، عندما أكون لوحدي على سريري قبل النوم، أقول مع نفسي: لماذا لا أحلم مثل نادية؟ ثم أفكر قليلاً وأعود لأقول: ربما أنا أحلم أيضاً ولكنني لا أدري إنني أحلم، ربما أنا حلم طويل في رأس أحدهم نام ولم يستيقظ، إنه يحلم حياتي كلها.

هل أنا حلم أم فكرة كما يقول القبطان؟ وما هو الفرق بين الحلم والفكرة، هل يجب أن أفرح إذا كانت حياتي مجرد حلم في رأس أحدهم؟

تركت القبطان من دون أن أودعه لأنه تجاهلني واستمر ينظر نحو ظلام المحيط الذي ليس له نهاية ويتحدث من دون أن يلتفت إليّ.

في نهاية الممر الطويل، شاهدت أمامي الملجأ الذي كنا ننام بداخله هرباً من الحرب في كانون الثاني عام ١٩٩١، فكرت أن أدخل إليه، لكنني تراجعت عن فكرتي، شعرت بالخوف وبدأ قلبي يخفق بقوة.

ركضت مسرعة نحو شارعنا، دفعت بابنا ودخلت البيت بهدوء أمشي على أطراف أصابعي، قفزت القطة البيضاء أمامي ثانية وتوارت بين الأشجار الكثيفة في الزاوية البعيدة من الحديقة، تركت الباب الداخلي نصف مفتوح، صعدت السلّم إلى غرفتي، جلست على سريري أقود السفينة نحو البعيد مثل قبطان شجاع تواجهها عواصف ممطرة وتعبث بإشرعتها رياح عاتية، عندما أشرقت الشمس من النافذة، كانت العواصف قد هدأت، وتراجعت الأمواج إلى الوراء وتوقفت السفينة في الميناء، وكان ذلك بسبب قيادة القبطان الحكيمة.

## (٦)

يكون الهواء في الربيع منعشاً ويصبح النهار أطول قليلاً، نتخلص من الملابس الثقيلة ونشعر أننا صرنا خفيفين. يخرج الأولاد بدراجاتهم الهوائية التي ينطلقون بها بسرعة للسباق، ويطلقون بمرح اصوت أجراس المنبهات الصغيرة المثبتة على مقوّد الدراجات.

تخرج الأمهات والآباء إلى الحدائق ونخرج نحن نلعب على الرصيف.

يرش أبو بيداء حديقة البيت بالماء فينتشر عبق الروائح المنعشة في كل مكان. ترش أم ريتا عتبة بابهم لتصعد رائحة الأرض وتهب عليها نسائم آخر الربيع، أنا مثلكم أحب رائحة التراب حين تنزل عليه قطرات الماء، وأنا مثلكم أيضاً لا أعرف لماذا أحبها.

من وراء الشبابيك تأتي رائحة الشواء، أو طهي البطاطا المقلية بالدهن من بيت أم سالي فنشعر بشيء من بالجوع.

فجأة، تنطلق الموسيقى من بيت أم مناف فنركض على إيقاعها وننسى إننا شعرنا بالجوع، ندخل في مهرجان الألوان التي ترتديها الفتيات وهن يرقصن في حفلة عقد قران منال، توزع أمها حلوى المهر المغلفة بمكعبات زجاجية ويرتفع صوت الأغاني وتفوح العطور في كل مكان:

عيني يا عيني عليها، يا منولة

تبجي والحنة بديها، يا منولة.

أقف بعيداً عن البنات الصغيرات، أدس رأسي الصغير بين أجساد النساء الكبيرات لأراقب نادية وهي ترقص في وسط الحديقة قريباً من منال. الجميع يحب نادية حين ترقص ويصفقون لها، تسحبها منال إلى حضنها وتقبّلها، أنا أحسدها من كل قلبي وأقول مع نفسي: كيف تعلمت أن ترقص مثل الكبيرات؟ لماذا لا تخجل منهن كما لو إنها ترقص لنفسها؟

يتعالى تصفيق البنات لها ويرتفع صوت الأغاني كثيراً. يتسلق الأولاد سياج البيت ينظرون إلى نادية من دون أن تدري بهم، يطلق أحدهم تعليقاً وقحاً بصوت عال، تتوقف عن الرقص ويهرب الولد بعيداً تتبعه شلة الأصدقاء، نخرج أنا وهي من الحديقة وقد أحمر خداها من الخجل.

نسمع مرة أخرى صوت أغنية جديدة تنطلق من الحديقة، نادية ترفض أن نعود إليهم ثانية، تخرج أم منال في باب البيت وتنادي عليها، لكنها تركض نحو بيتهم ولم تخرج في ذلك المساء.

كما أخبرتكم، إنني ساقول لكم الحقيقة، أنا أغار من نادية قليلاً وربما كثيراً، لان الناس يحبونها ويهتمون بها، ونحن نحب أن يهتم الناس بنا، وإذا لم يهتم لنا أحد فإننا نكون غير موجودين. أحياناً عندما يتجاهلني الناس أبكي، أدخل غرفتي وأبكي. ثم أخرج وأعمل أشياء غريبة لكي ينتبه لي الآخرون. هل تعرفون ماهي هذه الأشياء الغريبة؟ عندما اتذكرها سأقولها لكم لانني الآن نسيتها.

في هذا الهواء المنعش، الذي يهب على طفولتنا من الحدائق في كنت أعيش أيامي في محلتنا الصغيرة، في شوارعها ودرابينها، في حدائقها وأرصفتها.

رسمت على جدار بيت عمو شوكت قارباً صغيراً ونسيت أن أرسم له شراعاً، لم أكن قد رأيت في حياتي بحراً أو محيطاً ولم أصعد في حياتي قارباً، رأيت الغروب من فوق خزان مياه بيتنا كما أخبرتكم، مثل محيط هائل يمتد بعيداً جداً حتى أبعد من بيت جدتي. في التلفزيون شاهدت السندباد ورأيت السفينة تصارع الأمواج في البحار العميقة، يضحك السندباد وتضحك ياسمينة من كل قلبهما وهما سعيدان بوصولهما للميناء.

- لقد وصلنا الى الجزيرة العائمة.

في اليوم التالي، أخفيت في جيبي قطعة طباشير صغيرة، ذهبت إلى نادية وقلت لها: تعالي نرسم شراعاً للقارب الصغير.

قالت نادية:

- أنا أرسم الميناء والنوارس.

قلت لها:

- أنا أرسم الشراع.

وصلنا الى الجدار، وقبل أن نخط عليه بالطباشير، خرج ألينا عمو شوكت وأمسك بنا ونحن نحاول أن نشخبط على حائط بيتهم النظيف، قرص نادية من أذنها قرصة خفيفة وطبع بأسنانه على معصمها ساعة عميقة تألمت منها قليلاً، أوشكت نادية على البكاء، أختلط الألم مع الخجل فلمعت في عينها دمعة صغيرة، حزن هو لهذا الموقف الذي لم يكن يتوقعه.....

أخذنا من أيدينا وأدخلنا بيته يمسح دموعها، تقدمت منه باجي نادرة تلومه وتبتسم في وجهينا وهي تعتذر. في كل مرة نشاهدهما معاً، هو يعض معاصمنا وهي تلومه وتعتذر.

أنا لا اتذكر، وحتى نادية لا تتذكر، وأهلي لا يتذكرون، وأهلها لا يتذكرون متى سكن عمو شوكت مع باجي نادرة في هذا البيت. البيوت التي تولد قبلنا والأشجار التي تنمو قبل أن نرى العالم، ليس لها تاريخ يتذكره الناس.

لبيتهم سياج واطىء تتسلق عليه أشجار الياس وتعلوه أغصان الشبوي لتحجب الحديقة الأمامية عن التداخل مع الشارع. ينفتح الباب الرئيس على كراج سيارته الفولكس واغن الصفراء اللون. عند نهاية الكراج، فسحة مبلطة بالموازييك ومفتوحة على الممر الجانبي وعلى الحديقة في الوقت نفسه. لهذا البيت وحده رائحة ذكرى مختلفة، فهو أول بيت يأتي في خيالي عندما أحاول أن اتذكر المحلة.

يربي عمو شوكت وزوجته في الحديقة الخلفية زوجين من طائر القبج، جلبتهما هي من كردستان، وعلى أحد اغصان شجرة الرمان، يتدلى قفص صغير لطائر البلبل الذي يغرد كل صباح، وأحيانا يغرد وقت المساء، لكنه في الليل ينام. آثاث بيتهم يشبه تقريباً اثاث بيوت المحلة، إلا أن الفراغات بينها مريحة.

على الجدار الموازي لطاولة الطعام، صورتهما وهما شابان أنيقان يقضيان شهر العسل في مصائف كردستان، حيث يظهر في خلفية الصورة شلال (گلي علي بيگ). المياه تتدفق من الشلال وتحفر نهراً صغيراً بين الصخور، النهر الصغير يجري لمسافات طويلة بين الوديان ويرمي نفسه في نهر دجلة. تحت شلال (گلي علي بيگ) كانا يبتسمان إبتسامة منعشة تذوب منها الثلوج في أعلى الجبال ويتدفق صدى أغنية تتوه في الوديان السحيقة. صورتهما الفوتغرافية هي شلال من الذكرى يتدفق نحو اللانهاية بصمت.

في هذه المملكة الأليفة يعيشان، وعلى هذه الأريكة نفسها، التي جلسنا عليها أنا ونادية بعد أن مسحت دموعها وتناولنا قطعاً من الحلوى، يجلسان هما في المساء ويشاهدان برامج التلفزيون.

برغم مرور مدة طويلة على زواجهما لكنهما يعيشان بدون أطفال، لم تنجب باجي نادرة طفلة تلعب معنا. أنا ونادية وكل أطفال المحلة أطفالهما، جميعنا دخلنا بيتهما وأكلنا من مطبخ باجي التي نحبها وهي تفرح بنا، تحكي لنا بلكنتها الكردية قصصاً خيالية عن الجبال الشاهقة، عن مامند وحبيبته الذي سرقها وهرب بها إلى قمة الجبل وعاشا هناك بقية حياتهما، تحكي لنا عن السناجب والفلاحين وقصصاً أخرى....

«كان هناك فلاح وابنه، وكان سمع كليهما ثقيلاً، ذات صباح استيقظ الابن باكراً، ولبس ثياب العمل، فشاهده والده وسأله: هل ستذهب لحراثة الأرض يا ولدي؟ فأجابه الابن: لا يا أبي، أنا ذاهب كي أحرث الأرض، فقال الأب: ليكن يا ولدي، فقد ظننتك ذاهباً لتحرث الأرض!!»

ضحكنا أنا ونادية من هذه القصة الجميلة وقلنا لها باجي نريد قصة ثانية، رفعت رأسها تنظر إلى السقف لكي تتذكر:

«كانت هناك قرية صغيرة تقع على سفح جبل كبير اسمه «بيره مگرون» في هذه القرية تعيش فتاة جميلة مع أهلها، تحلم كل يوم بشاب وسيم يأتي إليها من النافذة ويتحدث معها وعندما تستيقظ في الصباح لا تراه، في يوم من الأيام، نزل الثلج وغطى الأرض كلها، خرجت الفتاة التي اسمها جوانا من البيت، وتسلقت سفح الجبل حتى تعبت، وجلست تفكر في هذا الشاب الذي لا تراه إلا في

إحلامها، وقالت لنفسها: بما إنني لم أره في الواقع، لماذا لا أصنع له تمثالاً من الثلج، راحت تجمع الثلج من حولها حتى أصبح لديها كومة كافية، فجلست تصنع منها فتى أحلامها، بعد ساعة من العمل، صار لديها صديق له عينان كبيرتان وشعر أشقر، تماما مثلما كانت تراه في أحلامها، وقفت أمامه تنظر في عينيه فقال لها: أنا أحبك. خجلت جوانا وأحمر خداها وقالت له: ما اسمك، فقال لها: اسمي ماندو، فقالت له: لماذا أنت نحيف؟ فقال لها: لأنني جائع، ابتسمت له وقالت: سوف أذهب إلى البيت وأجلب لك شيئاً من الطعام، فابتسم لها وشكرها. أسرعت جوانا تهرول فوق الثلج بإتجاه بيتهم، ولكنها تاهت في الطريق، لان الثلج غطى آثار أقدامها. في هذه الأثناء أشرقت الشمس من بين الغيوم، وعندما وصلت جوانا البيت، حملت بعض الطعام وعادت تركض نحو صديقها وهي فرحة بالطعام الذي جلبته له، لكنها لم تجد أي أثر لماندو، لأن الشمس قد أذابته بحرارتها. حزنت جوانا كثيراً وراحت تبكي ورمت الطعام على الأرض، فجاءت العصافير تأكل منه، ومنذ ذلك اليوم، تنهض جوانا كل صباح وتحمل الطعام وترميه للعصافير في المكان نفسه. صارت هذه الفتاة الجميلة لا تحب الشمس لانها أخذت منها ماندو، في يوم من الأيام وبينما هي تحمل الطعام إلى العصافير، شاهدت الشمس تنزل قريبا من السفح، فقالت لها: لماذا أخذت ماندو إيتها الشمس؟ فقالت لها الشمس: أنا لم آخذ ماندو، لكنه كان يحبك كثيراً حتى ذاب من الحب وصار جدولاً»

حزنا أنا ونادية على جوانا وماندو وحزنت معنا باجي نادرة لكنها قالت لنا: في المرة المقبلة سأحكي لكم نهاية القصة السعيدة لهذه

الفتاة وهي تلتقي فتى أحلامها من جديد.

في السنوات الأخيرة، لم يعد عمو شوكت أنيقاً مثلما كان مظهره عندما كنت صغيرة، حين كانت بذلته جديدة وقميصه أبيض وفوقه ربطة عنق زرقاء، أصبح في هذه الأيام لا يهتم كثيراً بملابسه، حتى ربطة عنقه أصبحت قديمة ولونها أصبح باهتاً، صار لا يبتسم لنا كثيراً، وعندما نلقي عليه التحية، يردها علينا ببرود من دون أن ينظر في وجوهنا.

تركت باجي نادرة وظيفتها وتفرغت للإهتمام ببيتها وزوجها، وهي تحرص كثيراً على نظافة باب بيتهم، ونظافة الرصيف والشبابيك، وتعتني بنباتات حديقتهم وطيورها. أنا أحب ملابسها الكردية بألوانها الجميلة، أحب رقصاتها وأغانيها في الأفراح:

نرجس نرجس نرجس... نرجس زينار جوانا

أوي نرجس نرجس نرجس... سرك ألوني إيفانا.

بعد أيام عدة من دخولنا بيتهم أنا ونادية، استيقظت باجي مبكراً ذات صباح، حملت حقيبتها وسافرت إلى بيت أهلها في قريتهم الجبلية. إنقطعت أخبارها بعد تلك الزيارة. عندما يسأل أحد من المحلة عمو شوكت عن سبب غيابها، أحيانا يقول إنها مريضة، وأحيانا يقول إن أمها ماتت. مع مرور الوقت، صار يعرف كيف يعيش لوحده، وتعود الناس على أن ينسوا باجي نادرة.

لكي أكون صادقة معكم، الناس لم ينسوها، لكنهم تعودوا على نسيانهم لغيابها، وليس على نسيانها هي شخصياً، هناك ناس في محلتنا وحتى في كل مكان من العالم، نسيانهم يعني إننا نتذكر غيابهم، الذي يحل محل وجودهم في حياتنا، وباجي نادرة من الناس

الذين لا يمكن أن ينساهم أحد حتى إنني قبل أيام حلمت بها وهي تحكي لي قصة جديدة سأرويها لكم عندما يكون الوقت مناسباً.

## (٧)

مثلما كنت أحب مدرستي في النهار، كنت أخاف من أشباحها في الليل. الأطفال كلهم يخافون من بناية المدرسة في الليل، وفي النهار يخافون من المديرة.

ذات مساء، كنا نلعب تحت ضوء مصباح عمود الكهرباء في شارعنا، كان ذلك في أواخر شهر حزيران، كنا على وشك أن نذهب لبيوتنا، عندما قالت بيداء تعالوا نذهب إلى المدرسة ونتسلق سياجها، بدت لنا هذه الفكرة غريبة في أول الأمر، لكن نادية قالت: تعالوا نذهب إلى الأولاد الذين كانوا يلعبون كرة القدم، ونخبرهم إن نتائج الامتحانات الوزراية معلقة في لوحة الأعلانات عند باب الإدارة منذ ظهر هذا اليوم، ثم نراقبهم وهم يتسلقون الجدار، نتركهم هناك ونهرب.

لم يصدق الأولاد أنفسهم حين طلبنا منهم القيام بعمل بطولي، تركوا ملعبهم الصغير وركضوا أمامنا في الحال وتقافزوا واحداً بعد الآخر فوق السياج، ثم نطوا داخل بناية المدرسة المظلمة، تركناهم

وهربنا ونحن نكاد نموت من الضحك، غير أن هؤلاء الأولاد الشياطين أفسدوا علينا ضحكتنا، فقد عادوا بعد قليل، بعد أن إكتشفوا مقلبنا وهم يحملون بأيديهم أوراقاً لإعلانات قديمة رفعوها من اللوحة وقالوا لنا:

ـ هذه نتائج الامتحانات.

إندهشنا كلنا، عندما وجدنا كذبتنا ظهرت كحقيقة وإنقلب الأمر ضدنا، ورحنا نتوسلهم أن يقولوا لنا ماذا في هذه الأوراق؟

إنها مجرد أوراق بيض فارغة! كنا نقول لهم لكنهم أصروا على إنها النتائج الوزارية، قالوا لي في سبيل المثال: أنت مكملة بدرس اللغة الإنكليزية، وقالوا لنادية أنت راسبة، ولبيداء مبروك لقد نجحت ياشاطرة، ثم قالوا لمروة نتيجتك لم تظهر لحد الآن.

توسلناهم مرة بعد أخرى، أن نرى بأعيننا النتائج ولكنهم رفضوا ذلك بقوة، ثم هربوا بعيداً عنا، عدنا إلى البيت والقلق يمنعنا من النوم في تلك الليلة الطويلة، يا إلهي هل حقا أنا مكملة في درس اللغة الإنكليزية؟! حاولت أن أستذكر الأسئلة وإجاباتي عليها، لكن ذاكرتي تشوشت ونسيت كل شيء عن الإمتحان، حتى إنني نسيت فيما إذا كنت قد إمتحنت في مادة اللغة الإنكليزية أم لا، لكنني اتذكر جيداً، إنني إمتحنت في كل المواد ولم أغب يوماً في حياتي كلها عن المدرسة.

كنت أقول لنفسي في كل مرة يملأ فيها الخوف قلبي: إنهم يكذبون، أنا لا أنسى، أنا كنت شاطرة في كل الدروس وخاصة في درس اللغة الإنكليزية، فأنا أحفظ الكتاب من الغلاف إلى الغلاف، فكيف أكون قد رسبت في هذه المادة السهلة؟! ثم كيف تكون نادية راسبة وهي من أشطر الطالبات في المدرسة؟! ولماذا لم تظهر نتيجة

إحلامها، وقالت لنفسها: بما إنني لم أره في الواقع، لماذا لا أصنع له تمثالاً من الثلج، راحت تجمع الثلج من حولها حتى أصبح لديها كومة كافية، فجلست تصنع منها فتى أحلامها، بعد ساعة من العمل، صار لديها صديق له عينان كبيرتان وشعر أشقر، تماما مثلما كانت تراه في أحلامها، وقفت أمامه تنظر في عينيه فقال لها: أنا أحبك، خجلت جوانا وأحمر خداها وقالت له: ما اسمك، فقال لها: اسمي ماندو، فقالت له: لماذا أنت نحيف؟ فقال لها: لأنني جائع، ابتسمت له وقالت: سوف أذهب إلى البيت وأجلب لك شيئاً من الطعام، فابتسم لها وشكرها. أسرعت جوانا تهرول فوق الثلج بإتجاه بيتهم، ولكنها تاهت في الطريق، لان الثلج غطى آثار أقدامها. في هذه الأثناء أشرقت الشمس من بين الغيوم، وعندما وصلت جوانا البيت، حملت بعض الطعام وعادت تركض نحو صديقها وهي فرحة بالطعام الذي جلبته له، لكنها لم تجد أي أثر لماندو، لأن الشمس قد أذابته بحرارتها. حزنت جوانا كثيراً وراحت تبكي ورمت الطعام على الأرض، فجاءت العصافير تأكل منه، ومنذ ذلك اليوم، تنهض جوانا كل صباح وتحمل الطعام وترميه للعصافير في المكان نفسه. صارت هذه الفتاة الجميلة لا تحب الشمس لانها أخذت منها ماندو، في يوم من الأيام وبينما هي تحمل الطعام إلى العصافير، شاهدت الشمس تنزل قريبا من السفح، فقالت لها: لماذا أخذت ماندو إيتها الشمس؟ فقالت لها الشمس: أنا لم آخذ ماندو، لكنه كان يحبك كثيراً حتى ذاب من الحب وصار جدولاً»

حزنا أنا ونادية على جوانا وماندو وحزنت معنا باجي نادرة لكنها قالت لنا: في المرة المقبلة سأحكي لكم نهاية القصة السعيدة لهذه

الفتاة وهي تلتقي فتى أحلامها من جديد.

في السنوات الأخيرة، لم يعد عمو شوكت أنيقاً مثلما كان مظهره عندما كنت صغيرة، حين كانت بذلته جديدة وقميصه أبيض وفوقه ربطة عنق زرقاء، أصبح في هذه الأيام لا يهتم كثيراً بملابسه، حتى ربطة عنقه أصبحت قديمة ولونها أصبح باهتاً، صار لا يبتسم لنا كثيراً، وعندما نلقي عليه التحية، يردها علينا ببرود من دون أن ينظر في وجوهنا.

تركت باجي نادرة وظيفتها وتفرغت للإهتمام ببيتها وزوجها، وهي تحرص كثيراً على نظافة باب بيتهم، ونظافة الرصيف والشبابيك، وتعتني بنباتات حديقتهم وطيورها. أنا أحب ملابسها الكردية بألوانها الجميلة، أحب رقصاتها وأغانيها في الأفراح:

نرجس نرجس نرجس... نرجس زينار جوانا

أوي نرجس نرجس نرجس... سرك ألوني إيفانا.

بعد أيام عدة من دخولنا بيتهم أنا ونادية، استيقظت باجي مبكراً ذات صباح، حملت حقيبتها وسافرت إلى بيت أهلها في قريتهم الجبلية. إنقطعت أخبارها بعد تلك الزيارة. عندما يسأل أحد من المحلة عمو شوكت عن سبب غيابها، أحيانا يقول إنها مريضة، وأحيانا يقول إن أمها ماتت. مع مرور الوقت، صار يعرف كيف يعيش لوحده، وتعود الناس على أن ينسوا باجي نادرة.

لكي أكون صادقة معكم، الناس لم ينسوها، لكنهم تعودوا على نسيانهم لغيابها، وليس على نسيانها هي شخصياً، هناك ناس في محلتنا وحتى في كل مكان من العالم، نسيانهم يعني إننا نتذكر غيابهم، الذي يحل محل وجودهم في حياتنا، وباجي نادرة من الناس

الذين لا يمكن أن ينساهم أحد حتى إنني قبل أيام حلمت بها وهي تحكي لي قصة جديدة سأرويها لكم عندما يكون الوقت مناسباً.

## (٧)

مثلما كنت أحب مدرستي في النهار، كنت أخاف من أشباحها في الليل. الأطفال كلهم يخافون من بناية المدرسة في الليل، وفي النهار يخافون من المديرة.

ذات مساء، كنا نلعب تحت ضوء مصباح عمود الكهرباء في شارعنا، كان ذلك في أواخر شهر حزيران، كنا على وشك أن نذهب لبيوتنا، عندما قالت بيداء تعالوا نذهب إلى المدرسة ونتسلق سياجها، بدت لنا هذه الفكرة غريبة في أول الأمر، لكن نادية قالت: تعالوا نذهب إلى الأولاد الذين كانوا يلعبون كرة القدم، ونخبرهم إن نتائج الامتحانات الوزراية معلقة في لوحة الأعلانات عند باب الإدارة منذ ظهر هذا اليوم، ثم نراقبهم وهم يتسلقون الجدار، نتركهم هناك ونهرب.

لم يصدق الأولاد أنفسهم حين طلبنا منهم القيام بعمل بطولي، تركوا ملعبهم الصغير وركضوا أمامنا في الحال وتقافزوا واحداً بعد الآخر فوق السياج، ثم نطوا داخل بناية المدرسة المظلمة، تركناهم

وهربنا ونحن نكاد نموت من الضحك، غير أن هؤلاء الأولاد الشياطين أفسدوا علينا ضحكتنا، فقد عادوا بعد قليل، بعد أن إكتشفوا مقلبنا وهم يحملون بأيديهم أوراقاً لإعلانات قديمة رفعوها من اللوحة وقالوا لنا:

ـ هذه نتائج الامتحانات.

إندهشنا كلنا، عندما وجدنا كذبتنا ظهرت كحقيقة وإنقلب الأمر ضدنا، ورحنا نتوسلهم أن يقولوا لنا ماذا في هذه الأوراق؟

إنها مجرد أوراق بيض فارغة! كنا نقول لهم لكنهم أصروا على إنها النتائج الوزارية، قالوا لي في سبيل المثال: أنت مكملة بدرس اللغة الإنكليزية، وقالوا لنادية أنت راسبة، ولبيداء مبروك لقد نجحت بإشاطرة، ثم قالوا لمروة نتيجتك لم تظهر لحد الآن.

توسلناهم مرة بعد أخرى، أن نرى بأعيننا النتائج ولكنهم رفضوا ذلك بقوة، ثم هربوا بعيداً عنا، عدنا إلى البيت والقلق يمنعنا من النوم في تلك الليلة الطويلة، يا إلهي هل حقا أنا مكملة في درس اللغة الإنكليزية؟! حاولت أن أستذكر الأسئلة وإجاباتي عليها، لكن ذاكرتي تشوشت ونسيت كل شيء عن الإمتحان، حتى إنني نسيت فيما إذا كنت قد إمتحنت في مادة اللغة الإنكليزية أم لا، لكنني اتذكر جيداً، إنني إمتحنت في كل المواد ولم أغب يوماً في حياتي كلها عن المدرسة.

كنت أقول لنفسي في كل مرة يملأ فيها الخوف قلبي: إنهم يكذبون، أنا لا أنسى، أنا كنت شاطرة في كل الدروس وخاصة في درس اللغة الإنكليزية، فأنا أحفظ الكتاب من الغلاف إلى الغلاف، فكيف أكون قد رسبت في هذه المادة السهلة؟! ثم كيف تكون نادية راسبة وهي من أشطر الطالبات في المدرسة؟! ولماذا لم تظهر نتيجة

مروة وإن الإمتحانات كانت وزارية؟!

كنت أريد أن أنهض من سريري وأخرج إلى الشارع، لقد إختنقت من هذا الهواء الجاف الذي يحرمني من النوم، كانت الكهرباء قد إنقطعت في هذه اللحظة، في هذه الأيام صارت الكهرباء تنقطع كثيراً، نهضت من سريري وذهبت إلى المطبخ، فتحت الثلاجة وشربت الكثير من الماء، ولما عدت إلى السرير نمت في الحال من دون أن افكر ثانية بالنتائج.

طرقت نادية باب بيتنا في صباح اليوم التالي وهي ترتدي زي المدرسة، وقالت لأمي: إن النتائج ظهرت ويجب أن نذهب لتسلمها، قالت لها أمي: إنت تحلمين، ليس هذا هو وقت ظهور النتائج الوزارية. سمعت ذلك الحديث بينهما من وراء الباب وعدت إلى نومي، لكن أمي لم تستطع العودة إلى النوم، أعدت لنا الفطور وقبل أن توقظنا، ذهبت إلى المدرسة بنفسها وعادت وهي تنادي علي: إنهضي أيتها الكسولة النائمة، لقد نجحت بمعدل ٩٣ بالمئة، ظننت حينها إنها تمزح، ولكن بعد أن تأكدت، قفزت إليها من سريري أقبل وجهها ثم نهض أبي وقبلني، كانت هذه أول مرة يقبلني فيها أبي بمناسبة النجاح من دون أن يحملني بيديه من الفرح، لقد أصبحت كبيرة ويداه نحيفتان. لماذا يا أبي؟ أنا لم أكبر بعد، حتى لو كبرت أريدك أن تحملني وتدور بي في الصالة، أريدك أن ترميني في الهواء وأبقى حياتي كلها معلقة في الفراغ تنتظرني يداك وتحميني من السقوط على الأرض، أنا زعلت كثيراً منك، لكني لم أقل لك ذلك حينها، كنت أخجل أن أقولها أمامك، لانك كنت تحسبني صرت كبيرة. بين يديك يا أبي أنا صغيرة حتى عندما أكون في الثلاثين من عمري، أنا دائماً صغيرة ومعلقة

في الهواء قريبة من يديك.

لقد نجحت، ونجحت نادية، ونجحت بيداء ومروة، إلتقينا في حديقة بيت بيداء ونحن نضحك من الأولاد الذين كانوا نائمين الى هذه الساعة، ولم يعرفوا بعد إن النتائج الوزارية قد ظهرت حقاً، بعد قليل، خرجنا وطرقنا باب بيت أحمد وقلنا له لقد نجحنا، أما أنت أذهب إلى المدرسة، وسترى من هو الذي رسب بدرس الإنكليزي يا شاطر، وفعلنا ذلك مع فاروق ونزار ومناف وباقي الأولاد، بعد ساعة إمتلأت المحلة بالفرح، لقد نجح الجميع.

كان ذلك النهار نهاراً مميزاً لا يمكن أن أنساه، للأسف الشديد، إجتمع فيه الفرح والحزن. الأفراح في محلتنا لاتدوم طويلاً. في هذه اليوم نفسه، بعد أن تسلم نزار نتيجة الإمتحان، كانت تقف في بابهم سيارة كبيرة سوداء اللون نوع شوفرليه، سنتعود عليها في ما بعد، إنهم في هذه الساعة يتركون بيتهم، ويهاجرون الى خارج العراق ولن نراهم بعد هذا اليوم.

لم أكن أعرف وقتها معنى أن تهاجر عائلة من المحلة، لم نكن قد تعودنا على مثل ذلك، كان الحصار ليس قاسيا بالدرجة التي سيكون عليها بعد سنوات من الآن.

أمس، سمعت أمي بالمصادفة تتحدث مع أم نادية عن الحصار، ولكني لم أصغ اليهما جيداً، لقد سمعت كثيراً هذه الأيام كلمة الحصار وكرهتها، بسبب هذه الكلمة وحدها يجب أن لا نطلب من أهلنا الكثير، وأن نتحمل مزاجهم. بسبب الحصار فقدت أمي الراحة التي تعودت عليها وصارت تشكو من الملل، ولا تحب أن نطلب منها شيئاً، حتى إذا كان ذلك الشيء بسيطاً ولا يكلفها سوى كلمة واحدة، تخيلوا أن أمي

صارت تتعب حتى من كلمة واحدة. أصبح أبي كثير الصمت ويسرح في أغلب الأوقات وهو يتأمل سقف الصالة كأنه يشاهد المروحة للمرة الأولى. صار خروجنا من البيت قليلاً، لم نذهب في هذا الصيف إلى بحيرة الحبانية، ولم نخرج في نزهات بعيدة.

تحركت السيارة السوداء، بقي بيت أبو نزار فارغاً وسريعاً ما علاه الغبار وأصبحت أشجارهم كئيبة، على باب بيتهم تلتف سلسلة حديدية طويلة يسبب منظرها الحزن. لقد هاجروا بالفعل، فبإمكانك أن تعرف إنهم لن يعودوا، فقط من منظر الأشجار وكآبة الجدران.

خلال أيام قليلة، صار البيت قديماً تتحرك فيه أشباح مخيفة، حتى نحن صرنا نخاف أن نقترب منه، لكن القطط لا تخاف، فهي تقفز فوق السياج ثم تنزل وتتجول في البيت بحريتها، لقد أصبح بيت أم نزار بيتاً للقطط الغريبة والأشباح.

في العطلة الصيفية نفسها، ليس بيت أم نزار وحده من هاجر من المحلة، بيت أم علي وبيت أم سالي هاجرا أيضاً، ثم تبعهم بيت أم ريتا، أصبح مشهد الدموع والتوديع عادياً، في كل مرة، نقف نودع صديقة تسافر مع أهلها من دون أمل في أن نراها ثانية.

إنه الموت من نوع آخر تقول أمي: أن يختفي أحد ما من حياتك وليس لديك أمل في اللقاء به ثانية، وهذا يعني من وجهة نظرها إن أحدكم بالنسبة إلى الآخر قد مات. أمي دائما تجعل الأمور أكثر تعقيدا وكل شيء عندها مرتبط بالموت.

الموت هو الغياب الطويل الذي لا لقاء بعده، قد يذهب الميت إلى الجنة لكن الذي يهاجر من بلده فان الجحيم تذهب وراءه.

في بداية الأمر، كانت الامهات يجلسن عند الأبواب في ساعة

حزن رهيبة عندما تترك عائلة من المحلة بيتها في هجرة طويلة، فيتذكرون الجيران الذين غادروا، منذ أول يوم لوجودهم في الشارع، حتى آخر لحظة صعدوا فيها السيارة، ولكننا الآن أصبحنا معتادين على ذلك.

عندما نشاهد عائلة تصعد سيارة الشوفرليه السوداء الكبيرة، نعرف إنه مهاجرة من منظر الحقائب التي ترزم فوق سقف هذه السيارة، يتوقف الجميع لوداعهم وينتهي كل شيء. إن الناس يتعودون بسرعة على التكيف مع الأشياء الحزينة إذا تكررت وأصبحت عادة طبيعية متوقعة، الحزن الشديد يأتي من الأشياء التي لا نتوقعها، لذلك كان الحزن في البداية شديداً على الذين هاجروا أولاً، ولكن هذا لا يعني إننا عندما نمر على البيوت المهجورة ونتذكر أهلها لا نحزن، على العكس تماماً، يكون الحزن أكثر عمقاً وألماً، وحتى أكثر دموعاً من لحظة الوداع نفسها، ليس لأننا نفتقد الناس الذين نحبهم، ولكننا نتألم لمنظر بيوتهم الجميلة وقد أصبحت غابات صغيرة من الدخان.

كنا في شهر تشرين الأول، في السنة الأولى من الثانوية، لقد تغيرت أمور كثيرة في حياتنا، يجب أن تكون هناك مسافة مناسبة بيننا وبين الأولاد الذين كبرنا معهم، ويجب أن لا نضحك بصوت مسموع في الشارع، ولا نكتب على الجدران، كنا نمر أنا ونادية أمام بيوت الجيران الذين هاجروا، وعندما نرى أوراق الأشجار اليابسة في حديقتهم نشعر بالألم، تتمنى كل واحدة منا، أن تتحول إلى غيمة كبيرة وتنزل مطراً نظيفاً يغسل هذه الأوراق من الغبار.

أحياناً، تدفعني رغبة عميقة، أقترب من بيت أم سالي وأطرق الباب، أعرف إنهم لم يعودوا في بيتهم، ولكنني أحب أن أطرق

الباب، هذا هو الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أفعله كي اتذكرهم وأشعر إنهم لم يغيبوا من حياتي، أنظر من فتحة الباب إلى كراج البيت، اتخيل خطواتهم في الممرات واسمع أصواتهم وهي جامدة على الجدران، أرى ابتساماتهم تلتصق بالنوافذ وأفرح بها، أرى آثار إطارات سيارتهم مطبوعة على البلاط، واسمع صوت أزيز المحرك وهو ينفث بخاراً أبيض ثم يدوي.

عندما كنت صغيرة وكان أبي بعيداً عن البيت، وقعت مرة من السلم، وسال الدم من أنفي، حملتني أمي وهي تجري مسرعة نحو المستوصف الحكومي في المحلة المجاورة، خرج أبو سالي من بيتهم وشاهدها تبكي، دخل بسرعة وأدار محرك سيارته، وانطلق في أثرنا وأخذنا إلى الطبيب، كم اتمنى في هذه اللحظة، أن ينخدش أنفي مرة أخرى، أريد أن يأخذني أبو سالي إلى الطبيب وهو يحملني بين يديه، لقد إشتقت إليهم، إشتقت إلى أم سالي وسالي وسندس وسوسن وسهير وسولاف، إشتقت إلى أن ينخدش أنفي مرة أخرى.

مثلما قلت لكم، أنا أحب أن يهتم الآخرون بي حتى لو أنخدش أنفي وسال منه الدم.

نزلت دمعتي في باب بيتهم، وواصلت طريقي من دون أن اتحدث مع نادية بكلمة واحدة، في اللحظات التي أكون فيها حزينة، لا أحب أن اتحدث مع أحدهم، نادية تعرف هذا ولا تزعل مني.

لم يستمر صمتي طويلاً، جاءت ملائكة، الشيطانة كما كانت نادية تسميها عندما كانت معنا في الملجأ عام ١٩٩١، إقتربت منا ومن دون مقدمات قالت لنا:

- آني تركت المدرسة.

- ليش؟!

سألتها أنا ونادية في الوقت نفسه.

- تركت المدرسة، هذا آخر يوم لي فيها، سأحرق كتبي ودفاتري في التنور، أمي تطلقت البارحة، طردها أبي من البيت، سنبقى أنا وأختي الصغيرة معه.

- لماذا لم تذهبا أنت وأختك مع ماما؟ سألتها نادية.

- أمي شريرة، أجابت بشهقة عميقة وراحت تبكي.

- كيف تقولين هذا عن أمك؟!

- لان أبي طيب ومسكين ولا يعرف عنها شيئاً، وواصلت البكاء.

وقفنا أنا ونادية مستغربتين من هذا الكلام، نظرت إلينا الشيطانة وهي تتهيأ لتقول شيئاً آخر فكرت به جيداً في رأسها:

- أعرف إنكما تكرهانني منذ تلك الساعة التي رأيتكما فيها في الملجأ، أنتما سعيدتان لأن أمي تخون أبي مع رجل غريب، لكنني أكرهكما أيضاً.

ثم تركتنا وهي تردد بصوت عالٍ:

- آني شيطانة مو؟ اني أكره كل الجيران، كلكم شياطين.

في أحد أيام الشتاء، لا اتذكر بالضبط في أي شهر، وفي أية سنة حدث ذلك، لكننا على الأغلب كنا في الصف الرابع الثانوي، بعد ليلة شديدة المطر، إنبسط الضباب الكثيف على محلتنا في الصباح، وصار مثل شال نظيف يمنع رؤية الأشياء، تتمرأى خلفه البيوت والأشجار، وتتحرك عليه العصافير وهي تشبه نقاطاً صغيرة من الحبر.

ظهر أمامنا أحمد وهو يقف على دراجته في رأس الشارع، لما إقتربنا منه على بعد خطوات قليلة، تقدم إلى نادية بخجل وفي عينيه نعاس ثقيل من دون أن يقول لنا صباح الخير، وضع بين يديها ورقة مطوية بعناية، أدار دراجته في الأتجاه الآخر وانطلق بها مسرعاً وهو يختفي في الضباب.

لم تكن نادية تتوقع هذه المفاجأة، أو ربما كانت تتوقعها وأنا لا أعرف ذلك.

فتحت الورقة وراحت تشم عطرها وتقرأها بهمس لنفسها ثم إلتفت إليّ وقالت:

- هذا أحمد مجنون!

- ليش مجنون؟!

- يگول اني أحبك من أيام الإبتدائية.

عاشت يومها هذا وهي تفقد شعورها تدريجياً بثقل العالم من حولها، صارت تسرح عني ولا تنتبه لما أقوله، حتى لو كنت اتحدث

في أمر مهم.

هذه أول مرة تشعر فيها نادية إن طفولتها أصبحت تختفي وراء جدار كثيف من الضباب، تغيرت هذا اليوم كثيراً، كما لو إنها نادية أخرى لا أعرفها، كنت أريد أن أدخل قلبها وأجرب الحب، لكننا لا يمكننا أن نستعمل قلوب غيرنا لنحب بها.

قرأت رسالة أحمد مرات عديدة ونحن في الطريق، قربتها من أنفها وهي تتنفس عطرها، حاولت أكثر من مرة أن تمزقها، لكنها كانت تغير رأيها في اللحظة الأخيرة.

في البيت، عندما رجعنا من المدرسة، قبل أن تغير ملابسها وتتناول طعام الغداء مع أهلها، وقفت أمام المرآة الطويلة في غرفة نوم الأم وتحسست جسدها بسرية من دون أن يراها أحد.

خرجت إلى الحديقة تجلس لوحدها تحت شمس الشتاء اللذيذة وهي تبتسم، هبت عليها نسائم رقيقة وحركت أوراق الأشجار فتدحرجت منها قطرات المطر العالقة فوقها منذ الليلة الماضية، نهضت من مكانها وقطفت وردة جوري حمراء اللون ونثرت أوراقها في الهواء، تخيلت وجه أحمد الطفولي وعينيه الصفراوين وأنفه المدبب، تنفست عطره الذي تركه على الورقة وتصاعدت أنفاسها، إمتلأ صدرها بهواء منعش ولطيف، دخلت البيت ووقفت أمام المرآة ثانية وهي تبتسم.

أصبحت في هذا الوقت، تخاف من جسدها، تخاف من إكتشافها المبكر لأنوثتها، قالت مع نفسها، إن حاجبيها جميلان، بل هما أجمل حاجبين تراهما عين في هذا العالم، وإن رموشها طويلة تجعل من لون عينيها قصة سحرية من الخيال، تأكدت من إن خديها ورديان

وإن شفتيها شهيتان، رفعت خصلة شعرها عن جبينها ثم تركتها تتهدل بنعومة، إبتعدت قليلاً عن المرآة، لفت قميصها حول خصرها ثم تركته بسرعة، كما لو إنها إنتبهت إلى إنها إرتكبت خطأ غير مسموح به.

في الليل جلست تكتب لأحمد رسالة طويلة، هذه أول مرة تكتب فيها رسالة، نادية لا تحب كتابة الرسائل، حتى في درس اللغة الإنكليزية، عندما تطلب منا المدرسة كتابة رسالة لصديقة مجهولة تعيش في بلد أجنبي، تختار بدلاً عن كتابة الرسالة أن تكتب عن رحلة وهمية في مدينة لندن.

وضعت رسالة أحمد مفتوحة أمامها وراحت تحاكي عباراته، كتبت له: أنا أحبك، ولكنها شخبطت فوقها، حاولت أن تتذكر عبارات من الأغاني ومن المسلسلات التلفزيونية، لكنها لم تتذكر شيئاً يناسب ما كانت تريد أن تقوله بالضبط. ماذا كانت تريد أن تقول له بالضبط؟ هي تريد أن تقول له (أحبك) ولكن من دون أن تكتبها مباشرة، وأخيراً بعد أن تعبت وشعرت بالنعاس كتبت له:

أنا فرحت كثيراً برسالتك التي وضعت عليها عطراً أحبيته وقبل أن أنام كنت أفكر بك، وعندما أستقيظ صباحاً سأفكر بك أيضاً، أنت تجعلني أفكر بك، ثم رسمت قلباً وسهماً ونامت.

في أول لقاء عابر معه نهار اليوم التالي، رمت عليه الرسالة بسرعة خاطفة وعادت تركض بإتجاهي وهي تضحك من كل قلبها.

سحبتني وراء كشك بائع الصحف نراقب أحمد من بعيد وهو يفتح الرسالة ويقرؤها، كانت تمسك بيدي وتقفز من الفرح كلما يفتح الرسالة ويضعها في حقيبته، يتقدم خطوات قليلة إلى الأمام، يتوقف ويخرجها من الحقيبة ويعيد قراءتها، أخذتني من يدي التي كانت

تمسك بها وركضنا إلى المدرسة.

في درس الجغرافية، لمحتها إلى جانبي على الرحلة، تخفي رسالته بين أوراق الكتاب وهي تعيد قراءتها مرة أخرى، كانت مشغولة بها، كأنها تكتشف عالماً جديداً من الكلمات لم تتعرف عليه من قبل.

نظرت إليها نظرة خاطفة، لأتأكد من إنها ما زالت نفسها صديقتي التي أحبها، هذه أول مرة يدخل في حياتها شخص آخر، كنت أخاف أن يسرقها الحب مني، أن يحتل أحمد مكاني في قلبها ويتقاسم معها الأحلام.

في الفسحة، وضعت يدي بيدها وتمشينا في الساحة، كانت ساهية عني، مشغولة تنظر في البعيد، لقد أحتل هذا الولد روحها وصار يزيحيني بعيداً عنها، إنه يشغل تفكيرها كله.

هل أصبح أحمد كل شيء في حياتها؟

قلت لها:

- نادية آني أموت عليك.

- واني هم أموت عليك.

ردت عليّ ببرود، أو هكذا تخيلت أنا، لم أكن أنتظر منها هذا الجواب، كنت اتمنى أن تقول شيئاً آخر، مثلاً أن تقول لي ما مناسبة هذا الكلام؟!

فتَحَتْ الرسالة المحشورة في الكتاب نفسه، أدارت ظهرها عني وقرأتها هذه المرة بهمس، صارت أسرار نادية تخصها وحدها، هي الآن تؤسس عالمها الشخصي بعيداً عني، قلبها يدق دقات جديدة ورئتاها تتنفسان هواء ليس هو نفسه الهواء الذي نتنفسه سوية.

الحب عندما يقترح تاريخه السري يبدأ بحراسة الغموض، يقتلع

الإنسان من نفسه، من أهله، من أصدقائه، من كل ماحوله ويحبسه في القلق. ربما أصبح وجودي قريباً منها وجوداً باهتاً، فقدت خطواتها الإنسجام القديم مع خطواتي، صارت مرة تتقدمني، ومرة أخرى تتخلف عني، وعندما فقدنا إنسجام خطواتنا كثرت عثراتنا في الطريق.

حايرة والشوك بين عيونك... والسهر ذبل سواد عيونك

خلينا نندل الطريق النمشيه... أوله واضح خلي نعرف تاليه.

في بداية فصل الربيع من هذه السنة، ونحن نخرج من باب المدرسة بعد نهاية الدوام، تصاعدت زخات المطر التي كنا قبل قليل نسمع طرقاتها على زجاج النوافذ، كان أحمد ينتظرنا عند نهاية السياج، كان يرتدي بنطالاً من الجينز وقميصاً أبيض فوقه سترة جلدية قصيرة، تقدم نحو نادية مثل عاشق في قصص الحب التي نشاهدها في التلفزيون، ليُناولها مظلة سوداء ويختفي في الزحام.

ـ أحمد يخاف عليّ حتى من المطر.

نسيت من فرحتها أن تفتح المظلة، كانت ترفعها مطوية وتلوح بها في الهواء كإنها تقول للمطر أحبك.

نادية بالفعل تحب المطر، وتكون سعيدة عندما تنظر إلى السماء وترى الغيوم تتكثف فوقها. فهي تتوقع المطر قبل هطوله، وفي كثير من الأيام المشمسة تقول لي: إنها ستمطر غداً، وبالفعل تتدافع الغيوم في اليوم التالي في سماء مدرستنا وينزل المطر، ليس هذه فقط، لديها أيضاً نوع من إحساس غريب بالطبيعة وتبدلاتها، فهي تراقب الطيور في السماء وتعرف مواسم الهجرات، وعندما تختفي النوارس، كانت تقول: إنها تلهو فوق سطح النهر، تعرف موسم تزاوج العصافير،

وتحدد بدقة مواعيد تفتح الأزهار في الحدائق. تنشغل في كثير من الأوقات في تتبع حياة الحشرات على أوراق الأشجار، وعندما يأتي منتصف شهر آذار تقول: ستأتي الفراشات، فتأتي.

عند باب بيتهم ودعتني وأنصرفت، بعد لحظات سمعت وقع خطاها وهي تلهث ورائي، إلتفت إليها.....

قالت لي بصوت مرتبك مع إبتسامة بلهاء:

- وين أودي المظلة؟

- جيبيها.

أخذتها عنها ودخلت بيتنا.

إذا كان أحدكم يرغب بمعرفة لماذا أخذت عنها المظلة، فالأمر بسيط جداً، ولا يستحق التفكير، هو إن نادية ليس لديها جواب لأمها إذا سألتها: من أين لك هذه المظلة؟ أما أنا وفي هذه الحال سأقول لأمي: أخذتها من نادية.

## (٩)

مثلما أخبرتكم في المرة السابقة، نحن لم ننسى باجي نادرة أبداً، لكن المطر نزل ذات مرة ومسحها من على الجدار الذي رسمتها عليه هي وعمو شوكت يجلسان على أريكة وفوقهما عصفور، عندما مررت قرب هذا الجدار بكيت كثيراً، بكيت لانني رأيت عمو شوكت يجلس لوحده، بينما يرفرف فوق رأسه جناح عصفور مسجون بالطباشير على الحائط، لم اتألم من أجل باجي نفسها، تألمت من شيء آخر، ربما هو الوحدة.

بعد أن أختفت من حياته لم ينسها، أو إنه ربما لم يحاول ذلك، أوحتى لم يفكر به، لكنه تعلم أن يعيش وحيداً، وهو لا يهتم كثيراً لانه يعيش وحيداً، لانه تعود على ذلك...

- إنه يخاف أن يموت وحيداً.

تقول أمي وهي تتحدث عنه أمام أبي ثم تواصل:

- من الصعب أن يموت الإنسان وحيداً وغريباً.

سكت أبي وراح يفكر مع نفسه من دون رغبة في مواصلة الحديث معها لأن أمي دائما تجعل الأمور أكثز تعقيداً وكل شيء لديها مرتبط بالموت.

أنا لم أفهم ذلك، صدقوني، لا أفهم لماذا من الصعب أن يموت الإنسان وحيداً، على العكس، أرى من الصعب أن يعيش الإنسان وحيداً، لأنه عندما يموت لا يحتاج إلى أصدقاء.

في كل يوم جمعة، يستيقظ عمو شوكت من النوم متأخراً، أحياناً يستيقظ في التاسعة صباحاً، وأحياناً أخرى يستيقظ في الحادية عشرة صباحاً، فمنذ أن مسحت الأمطار صورة زوجته التي رسمتها على الجدار صار وحيداً، يتناول فطوره وحيداً، يتمدد على الأريكة ويشاهد التلفزيون وحيداً، وبعد دقائق يعود ويغلقه وهو وحيد، هو لا يحب أن يشاهد البرامج التي كانت تحبها باجي، لقد تغيرت حياته منذ رحيلها، حتى صورتهما المعلقة على حائط الصالة وهما تحت شلال (گلي علي بيك) صار لا ينظر إليها حين ينظفها من الغبار، وفي آخر مرة نظر فيها إلى هذه الصورة وجد نفسه وحيداً.

لوحده صار يجلس على حافة سلم بيته يلمع أحذيته، ثم يقوم ليجمع ملابسه من حبل الغسيل ويكويها، يرتبها في الخزانة بعد أن يختار ملابس الدوام لليوم التالي، بين ملابسه شال وردي يخص باجي نادرة وجده في الغسالة بعد مغادرتها، في كل مرة يغسل فيها ملابسه يضع معها هذا الشال، ينشره معها على حبل الغسيل ثم يكويه ويقوم بترتيبه بعناية ويعيده إلى الغسالة.

بعد أن يفعل كل ذلك، يخرج يتفقد حديقته الخلفية، يضع طعاماً للبلبل وطائريَ القبج. إنتبه في الأيام الأخيرة إلى أن البلبل أصبح قليل الغناء وأن طائري القبج أصبحا نحيلين، صار يتحدث معها وهو يطعمها ثم يتجاهلها وفي قلبه غصة، لاشيء يمكنه أن يفعله مع هذه الطيور، هو يعرف في قرارة نفسه إنها تشتاق إلى باجي نادرة.

يترك طعام الغداء على النار ويخرج إلى الشارع ليتفقد واحداً من بيوت الجيران التي هاجر أهلها، فهو منذ أن غادروها منح نفسه مسؤولية الحفاظ على هذه البيوت من دون أن يشعر بالتعب.

كان يدخل الى هذه البيوت ويتنفس هواء السنوات التي عاشها مع الجيران الذين أحبهم وأصبحوا عائلته الكبيرة. إن بيوت الجيران هي مستودع ذكرياتهم، فعندما يهتم بها فهو يريد أن يقول لكل فرد عاش بين جدرانها: أنا أحبك ومشتاق لك، هو يشتاق للكبار والصغار بالدرجة نفسها.

يدفع أمامه بإحدى يديه ماكنة قص العشب بقرقعتها المزعجة، وبيده الثانية يحمل صندوقاً للعدد اليدوية.

هذا النهار، قرر أن يعتني ببيت أم علي، أخرج من الصندوق مجموعة مفاتيح، وإختار منها واحداً وفتح القفل الذي يربط السلسلة الحديدية ودخل إلى البيت، بعد أن قص العشب وقطع الأوراق الذابلة وأجرى الماء في الساقية، فتح الباب الداخلي ودخل إلى الصالة ثم تجول في الغرف والممرات.

في المطبخ، عثر بشكل غير متوقع على كلب أسود، يتمدد منهكاً على الأرض ولا يستطيع الحركة من شدة الجوع والعطش، قبل أن يسأل نفسه من أين دخل هذا الكلب وكيف تسلل إلى داخل البيت وكل أبوابه ونوافذه مغلقة، حمل دلواً صغيراً من الماء ووضعه أمامه، خرج مسرعاً نحو بيته، تناول من ثلاجته بعض قطع اللحم والعظام وعاد ووضعها أمامه فراح يلتهمها بشراهة.

- كيف دخلت الى هذا المكان؟

نظر الكلب في عينيه نظرة تستجدي العطف كأنه يقول له:

- لا أعرف.

- كنت ستموت وحيداً لو أنني لم أدخل بالمصادفة إلى هنا.

- أنا لا أخاف أن أموت وحيداً.

تقدم نحوه وربتَ على ظهره ثم حمله برفق إلى البيت، وضعه في طست صغير وراح ينظف جسده بالصابون وهو يترنم لحناً حزيناً، نشف جسده تحت أشعة الشمس في الحديقة وراح يداعبهُ بحنان والكلب يستعيد عافيته شيئاً فشيئاً وتلمع عيناه وهو يتدحرج مرحاً على العشب.

منذ ذلك اليوم أصبح عمو شوكت لا يُشاهد في الشارع إلا بصحبة هذا الكلب، الذي أحبه وتعود عليه وصار جزءاً من منظره الخارجي، يمشي في الطريق والكلب يتبعه، يتوقف مع وقوفه، ويجلس على مؤخرته عندما ينشغل هو بالحديث مع أحد الجيران.

جاء أحد الأطفال ومسح العصفور الذي رسمته على الجدار، ورسم مكانه بالطباشير الملونة كلباً صغيراً يجلس تحت الأريكة التي يجلس عليها عمو شوكت، الكلب ينظر إلى عمو شوكت وعمو شوكت يضحك (والفرق بين الإبتسامة والضحكة هي إنه في الأولى يغلق فمه وفي الثانية يفتحه).

قالت أمي لأبي: لقد عثر أخيراً على رفيق له، عنده الآن كلب صغير ولن يموت وحيداً بعد الآن.

- وماذا سيفعل الكلب عندما يموت الرجل، هل سيخرج للناس ويقول لهم لقد مات؟

- لا... أنت لا تفهمني، الإنسان بطبعه يخاف أن يموت وحيداً، وعندما يموت عمو شوكت سيكون الكلب موجوداً قريباً منه وسيراقب روحه عندما تصعد إلى السماء.

- وإذا مات الكلب قبله؟

- لن يحدث هذا.

# (٩)

مثلما أخبرتكم في المرة السابقة، نحن لم ننسى باجي نادرة أبداً، لكن المطر نزل ذات مرة ومسحها من على الجدار الذي رسمتها عليه هي وعمو شوكت يجلسان على أريكة وفوقهما عصفور، عندما مررت قرب هذا الجدار بكيت كثيراً، بكيت لانني رأيت عمو شوكت يجلس لوحده، بينما يرفرف فوق رأسه جناح عصفور مسجون بالطباشير على الحائط، لم اتألم من أجل باجي نفسها، تألمت من شيء آخر، ربما هو الوحدة.

بعد أن أختفت من حياته لم ينسها، أو إنه ربما لم يحاول ذلك، أوحتى لم يفكر به، لكنه تعلم أن يعيش وحيداً، وهو لا يهتم كثيراً لانه يعيش وحيداً، لانه تعود على ذلك...

- إنه يخاف أن يموت وحيداً.

تقول أمي وهي تتحدث عنه أمام أبي ثم تواصل:

- من الصعب أن يموت الإنسان وحيداً وغريباً.

سكت أبي وراح يفكر مع نفسه من دون رغبة في مواصلة الحديث معها لأن أمي دائما تجعل الأمور أكثز تعقيداً وكل شيء لديها مرتبط بالموت.

أنا لم أفهم ذلك، صدقوني، لا أفهم لماذا من الصعب أن يموت الإنسان وحيداً، على العكس، أرى من الصعب أن يعيش الإنسان وحيداً، لأنه عندما يموت لا يحتاج إلى أصدقاء.

في كل يوم جمعة، يستيقظ عمو شوكت من النوم متأخراً، أحياناً يستيقظ في التاسعة صباحاً، وأحياناً أخرى يستيقظ في الحادية عشرة صباحاً، فمنذ أن مسحت الأمطار صورة زوجته التي رسمتها على الجدار صار وحيداً، يتناول فطوره وحيداً، يتمدد على الأريكة ويشاهد التلفزيون وحيداً، وبعد دقائق يعود ويغلقه وهو وحيد، هو لا يحب أن يشاهد البرامج التي كانت تحبها باجي، لقد تغيرت حياته منذ رحيلها، حتى صورتهما المعلقة على حائط الصالة وهما تحت شلال (گلي علي بيك) صار لا ينظر إليها حين ينظفها من الغبار، وفي آخر مرة نظر فيها إلى هذه الصورة وجد نفسه وحيداً.

لوحده صار يجلس على حافة سلم بيته يلمع أحذيته، ثم يقوم ليجمع ملابسه من حبل الغسيل ويكويها، يرتبها في الخزانة بعد أن يختار ملابس الدوام لليوم التالي، بين ملابسه شال وردي يخص باجي نادرة وجده في الغسالة بعد مغادرتها، في كل مرة يغسل فيها ملابسه يضع معها هذا الشال، ينشره معها على حبل الغسيل ثم يكويه ويقوم بترتيبه بعناية ويعيده إلى الغسالة.

بعد أن يفعل كل ذلك، يخرج يتفقد حديقته الخلفية، يضع طعاماً للبلبل وطائريَ القبج. إنتبه في الأيام الأخيرة إلى أن البلبل أصبح قليل الغناء وأن طائري القبج أصبحا نحيلين، صار يتحدث معها وهو يطعمها ثم يتجاهلها وفي قلبه غصة، لاشيء يمكنه أن يفعله مع هذه الطيور، هو يعرف في قرارة نفسه إنها تشتاق إلى باجي نادرة.

يترك طعام الغداء على النار ويخرج إلى الشارع ليتفقد واحداً من بيوت الجيران التي هاجر أهلها، فهو منذ أن غادروها منح نفسه مسؤولية الحفاظ على هذه البيوت من دون أن يشعر بالتعب.

كان يدخل الى هذه البيوت ويتنفس هواء السنوات التي عاشها مع الجيران الذين أحبهم وأصبحوا عائلته الكبيرة. إن بيوت الجيران هي مستودع ذكرياتهم، فعندما يهتم بها فهو يريد أن يقول لكل فرد عاش بين جدرانها: أنا أحبك ومشتاق لك، هو يشتاق للكبار والصغار بالدرجة نفسها.

يدفع أمامه بإحدى يديه ماكنة قص العشب بقرقعتها المزعجة، وبيده الثانية يحمل صندوقاً للعدد اليدوية.

هذا النهار، قرر أن يعتني ببيت أم علي، أخرج من الصندوق مجموعة مفاتيح، وإختار منها واحداً وفتح القفل الذي يربط السلسلة الحديدية ودخل إلى البيت، بعد أن قص العشب وقطع الأوراق الذابلة وأجرى الماء في الساقية، فتح الباب الداخلي ودخل إلى الصالة ثم تجول في الغرف والممرات.

في المطبخ، عثر بشكل غير متوقع على كلب أسود، يتمدد منهكاً على الأرض ولا يستطيع الحركة من شدة الجوع والعطش، قبل أن يسأل نفسه من أين دخل هذا الكلب وكيف تسلل إلى داخل البيت وكل أبوابه ونوافذه مغلقة، حمل دلواً صغيراً من الماء ووضعه أمامه، خرج مسرعاً نحو بيته، تناول من ثلاجته بعض قطع اللحم والعظام وعاد ووضعها أمامه فراح يلتهمها بشراهة.

- كيف دخلت الى هذا المكان؟

نظر الكلب في عينيه نظرة تستجدي العطف كأنه يقول له:

- لا أعرف.

- كنت ستموت وحيداً لو أنني لم أدخل بالمصادفة إلى هنا.

- أنا لا أخاف أن أموت وحيداً.

تقدم نحوه وربتَ على ظهره ثم حمله برفق إلى البيت، وضعه في طست صغير وراح ينظف جسده بالصابون وهو يترنم لحناً حزيناً، نشف جسده تحت أشعة الشمس في الحديقة وراح يداعبهُ بحنان والكلب يستعيد عافيته شيئاً فشيئاً وتلمع عيناه وهو يتدحرج مرحاً على العشب.

منذ ذلك اليوم أصبح عمو شوكت لا يُشاهد في الشارع إلا بصحبة هذا الكلب، الذي أحبه وتعود عليه وصار جزءاً من منظره الخارجي، يمشي في الطريق والكلب يتبعه، يتوقف مع وقوفه، ويجلس على مؤخرته عندما ينشغل هو بالحديث مع أحد الجيران.

جاء أحد الأطفال ومسح العصفور الذي رسمته على الجدار، ورسم مكانه بالطباشير الملونة كلباً صغيراً يجلس تحت الأريكة التي يجلس عليها عمو شوكت، الكلب ينظر إلى عمو شوكت وعمو شوكت يضحك (والفرق بين الإبتسامة والضحكة هي إنه في الأولى يغلق فمه وفي الثانية يفتحه).

قالت أمي لأبي: لقد عثر أخيراً على رفيق له، عنده الآن كلب صغير ولن يموت وحيداً بعد الآن.

- وماذا سيفعل الكلب عندما يموت الرجل، هل سيخرج للناس ويقول لهم لقد مات؟

- لا... أنت لا تفهمني، الإنسان بطبعه يخاف أن يموت وحيداً، وعندما يموت عمو شوكت سيكون الكلب موجوداً قريباً منه وسيراقب روحه عندما تصعد إلى السماء.

- وإذا مات الكلب قبله؟

- لن يحدث هذا.

الكلب الأسود الذي عثر عليه في بيت أم علي، هو من النوع الذي يتحدث لغة الإشارات ويفهمها، كما لو إنها لغته الفطرية الأولى، استغل عمو شوكت هذه الغريزة وراح يتدرب عليها ليتفاهم مع (برياد) وهذا هو الاسم الذي اطلقه عليه تيمناً باسم كلب أليف كان يعيش في بيت جده في قريته التركمانية في مدينة كركوك، قبل نصف قرن من الآن.

صار برياد الصغير فرداً من أفراد المحلة، يحبه الجميع ويلاطفونه عند مرورهم من أمامه، يعرف ابناء المحلة فرداً فرداً، ولا ينبح عليهم كما يفعل ذلك مع الغرباء، يركض وراء الأولاد يداعبهم وهم يسرعون بدراجاتهم، يتقافز مع البنات وهن يلعبن على الرصيف ويستقبل الأباء بفرح عند عودتهم من العمل.

الملفت للنظر، إن قطط المحلة التي ولدت على سطوح البيوت وحدائقها الخلفية، لا تخاف من برياد، ولا تبتعد عنه عندما يعترض طريقها دون أن يقصد، والأغرب من هذا، إن بعض هذه القطط، أصبحت على علاقة وثيقة به، علاقة بلغت حد التجول معه في الليل بحرية، حتى بتنا لا نعرف على وجه الدقة، فيما إذا أصبح برياد قطة بجسد كلب، أم أن القطط صار لها مزاج جراء صغيرة.

من خصائص برياد النفسية التي يعرفها الجميع، إنه يحب أن يتقاسم طعامه مع القطط البيض حصراً، فكان على الدوام يترك لها بعض العظام حتى لو كان جائعاً، من خصائصه الغريبة أيضاً، التي أريد منكم أن لا تستغربوا منها، إنه يتنبأ ببعض الأحداث قبل وقوعها، فإذا ما ترك بيت عمو شوكت صباحاً، وتوجه ليرفع ساقه ويتبول عند باب أحد الجيران، فان ذلك يعني لنا شيئاً واحداً: إن هؤلاء الجيران

يستعدون للهجرة قريباً، فمن خلال تبوله عند هذا الباب أو ذاك، صرنا نعرف من هو الجار القادم الذي إتخذ قرار الرحيل بلا رجعة.

بالإضافة إلى ذلك، هناك إشارات عديدة يجلبها من المستقبل، بعضها سرية بينه وبين عمو شوكت، وبعضها يمنحها برياد لابناء المحلة وبناتها عن طيب خاطر، فهو إذا ما هرول نحو فتاة وحاول لحس كاحلها، فإن ذلك يعني، إنها ستتزوج قريباً من فتى أحلامها وتعيش معه حياة سعيدة، حدث هذا كثيراً، تزوجت هند من حيدر بعد علاقة حب دامت لسنتين، وتزوجت مها من حذيفة وتزوجت منال من محمد بعد أن أعطاهن برياد إشارته المعروفة.

إذا ما قام برياد بعض حقيبة أحدهم وهو يمشي إلى مدرسته، فإن ذلك يعني، إن هذا الطالب متفوق في دروسه وإن النجاح ينتظره حتماً، وإذا ما نظر طويلاً في وجه امرأة عجوز، فهذا يعني بلا إدنى شك إن أجلها المحتوم بات قريباً.

## (١٠)

كان منظر مروة وهي تمسك بالبندقية وتطلق الرصاص في الهواء يستفزني شخصياً، لا أعرف إن كان ذلك قد اعجبني، أم أنا منزعجة منه، ولولا بعض مظروفات بندقيتها التي كانت تتقافز أمام عيني وتخيفني لما كنت اهتممت بتاتاً بالأمر، يحدث ذلك كل يوم خميس في مراسم تحية العلم التي تجرى في مدرستنا، وفي هذا اليوم، تكون مروة سعيدة وفخورة بشكل لا يصدق، لانها بعد أن تطلق الرصاص في الهواء، تقف في الساحة مع مجموعة من البنات وهي تشرح لهن قوة رد الفعل في البندقية.

بعد أن تتأكد من أن الجميع فهم معنى قوة رد الفعل، تضيف بغرور وبشيء من الولدنة المفتعلة:

- ليس هناك أي داع للقلق من هذا الموضوع، المسألة جدا بسيطة، أنا قوية ويمكنني السيطرة على البندقية وأن مديرة المدرسة تعرف ذلك ويزداد إعجابها بي بعد كل مرة أطلق فيها الرصاص تحية للعلم.

أنا لا أفهم لماذا يجب أن نطلق الرصاص في كل يوم خميس تحت سارية العلم، لماذا يجب أن يكون مع العلم دائماً صوت للرصاص، لعلم بلادنا وصوت البنادق علاقة لا نفهمها، من إجل أن نرفعه يطلق الرصاص، وعندما تصيب أحدهم رصاصة في رأسه ينزل العلم من السارية ويلتف حول جسده. من دون العلم لا يصبح الموتى شهداء، وعندما نرسم العلم على خارطة الوطن فهذا يعني إن الوطن شهيد.

كانت مروة طالبة شاطرة في دروسها، لا أحد ينكر ذلك، إختاروها أكثر من مرة قدوة للصف، وهي بالإضافة إلى كل هذا، فتاة جميلة وفاتنة، بصدرها البارز وردفيها المكتنزين وعنقها الطويل البلوري، هي في الحقيقة من أجمل بنات مدرستنا، روحها مرحة ودمها خفيف ولديها قابلية كبيرة على خلق مقالب مضحكة، الطلاب المراهقون في المحلة معجبون بها، ويعاكسونها في الطريق وهي تضحك لهم من دون أن تصد أحداً منهم، كانوا في كثير من المناسبات، يستغلون الظروف ويتعمدون الإحتكاك بجسدها وينتابهم شعور لا أعرف ماذا اسميه.

كانت هي سعيدة بهذا الشيء، ولكنها تحب أحمد بشكل خاص ولا تحب غيره، عندما صادفته مرة وهو يمشي مع نادية في الطريق، صارت تغار من نادية، وقالت لصديقاتها تعالوا نتبعهم ونغني بصوت عالٍ من أجل إزعاجهم...

- أحبك حب جنوني وأشيلك في عيوني.

التفت إليهن أحمد وحاول أن يقول كلاماً بذيئاً لكنه غيّر رأيه وأكتفى بحركة سخيفة بيده، غير إن مروة وصديقاتها لم يهتمن له وواصلن الغناء باعلى أصواتهن.

من أجل أن يتخلص من هذه الورطة، اضطر أحمد لتوديع نادية بسرعة وتغيير إتجاهه، بعد هذه الحادثة صار لا يحب مروة، وعندما يراها مصادفة في الطريق يدير وجهه عنها، وصارت نادية لا تحب مروة، وعندما تصادفها تغير طريقها.

أنا شخصياً أحب مروة، أو في الاقل لا أكرهها، وعندما أصادفها لا أغير طريقي، ولكنني أحب نادية وأنحاز لها، وعندما

أكون معها ونصادف مروة وشلتها أغني بصوت مسموع تقريباً:

عاندي وسلمي علية خلي لوم الناس إليه

عانديهم.. عانديهم.. خل يفركون بأديهم...

صارت مروة تكرهنا، تكره نادية وتكره أحمد وتكرهني أنا أيضاً، ومن أجل الإنتقام لنفسها، ذهبت إلى معاونة المدرسة وأخبرتها أن نادية على علاقة غير صحيحة مع شاب من محلتنا اسمه أحمد، استدعت المعاونة أم نادية للحضور إلى الإدارة في اليوم التالي، لم تقل لها إن ابنتك تحب أحدهم، كانت المعاونة تقدر هذ الشيء المحرج، هي فقط نصحتها بالإنتباه إلى سلوك ابنتها في هذه المرحلة من العمر.

بعيداً عن مراقبة مروة وملاحقتها وإزعاجها، صارت نادية تلتقي مع أحمد في الشوارع الخلفية البعيدة عن الأنظار، في الإتجاه المعاكس للطريق الإعتيادي الذي كنا نسلكه يومياً من وإلى البيت. هناك دائماً طرق بديلة نستطيع خلالها أن نتجنب الناس المزعجين، صحيح أن مروة في بعض الأحيان تصير مزعجة، ولكنها ليست شريرة، هي تزعج أحمد لانها تحبه، وتزعج نادية لان أحمد يحبها، ونحن دائماً نستطيع بسهولة أن نزعج الناس الذين نحبهم، حتى ونحن نريد أن نقول لهم أننا نحبهم فاننا أحياناً نقولها بطريقة تزعجهم، أنا الوحيدة في هذا العالم التي لا تزعج الذين تحبهم ولا تزعج الذين لا تحبهم.

في يوم من الأيام، حدثت لي مفاجأة غير متوقعة، كنت أقترب من دكان أبي نبيل لأشتري شيئاً ما عندما جاء فاروق ووقف أمامي وجهاً لوجه وقال لي:

- أنا معجب بك.

ولما تلعثمت أمامه من صدمة هذه المفاجأة ولم أتمكن من أيجاد رد مناسب، تشجع وأضاف:

ـ إنا أحبك.

بقيت أنا ساكتة ولا أعرف ماذا أقول له، نسيت حينها لماذا أتيت للدكان في هذا الوقت، حاولت أن اتذكر، لكنني كنت أرتجف وأكاد أن أبكي، ركضت نحو بيتنا من دون أن أشتري شيئاً ومن دون أن أرد على فاروق.

حقاً، كان حصول هذا الشيء أمراً غير متوقع. غسلت وجهي ووقفت أمام المرآة، قرصت خدي الأيمن من أجل أن يصبح وردياً، بالفعل ظهرت بقعة وردية صغيرة وأختفت في الحال، أبتعدت للمرة الاولى عن المرآة لاترك مسافة مناسبة، نظرت إلى جسدي بخجل، ثم ألتفت يميناً ويساراً لأتأكد من أن أحداً من أهلي لا يراني، بللت شعري بالماء قليلاً وسرحته بيدي ونظرت في المرآة نظرة خاطفة وخرجت إلى باب البيت من دون أن أفكر، رأيت (فاروق) من بعيد وابتسمت له، حاول أن يقترب مني ليقول شيئاً، لكنني تركته ودخلت من دون أن أغلق الباب، كنت لحظتها خائفة وأشعر أن كل الناس يراقبونني من نوافذ بيوتهم أو من شرفات السطوح.

قبل أيام من هذه الحادثة- أقصد ـ حادثة انه قال لي أحبك ـ كان فاروق يقف في باب بيتهم، وكنت أنا أقطع بعض عناقيد العنب التي لم تنضج بعد من قمريتنا، تقدم نحوي وطلب مني شيئاً من العنب الحامض، الذي قال إنه يحب طعمه، قطفت له عنقوداً ووضعته في راحة يده ولامست أصابعي أطراف أصابعه، ابتسم لي إبتسامة لم أفهمها، بعد أن ذهب إلى بيتهم فكرت به قليلاً ثم نسيت الأمر.

لم أتمكن تلك الليلة من النوم مبكراً، تقلبت على فراشي أحاول أن أطرد هذه الفكرة من رأسي، لكنني حتى أكون صادقة معكم، كنت سعيدة في داخلي، بقيت اتخيل (فاروق) وهو يكرر أمامي أنا أحبك... أنا أحبك... حتى نمت.

ليس لفاروق أخوة وأخوات، أبوه سافر للعمل أستاذاً جامعياً في ليبيا، ثم تزوج هناك من امرأة تونسية ليست جميلة كما تقول أم فاروق، وعاش معها يكتب لزوجته وابنه رسائل قصيرة، يقول فيها إنه بخير، ويتمنى أن يكونا هما بخير أيضاً، ويبعث لهم بعض الدولارات في رأس كل شهر. كان فاروق شاطراً في المدرسة، ولكنه يحب كرة القدم بشكل جنوني ويذهب إلى النادي ليتدرب يومياً حتى أصبح في ما بعد لاعباً معروفاً.

لا أعرف لماذا إختارني أنا وقال إنه يحبني، لم أكن قد تحدثت معه، ولم أكن مهتمة به، لم أفكر في الحب من الأصل، كنت مستمتعة بقصة نادية وأحمد وكان ذلك كافياً بالنسبة لي.

## رسائل من الغيب..

## (١١)

كثر في محلتنا في هذه الأيام، مرور المشعوذين الذين يقولون إنهم يعرفون كل شيء، كان برياد ينبح خلفهم بشدة وهو يحاول منعهم من المرور في شارعنا، وبعد أن نفد صبره من إلحاحهم عض امرأة من ساقها، امرأة سمينة تقول إنها تقرأ الطالع. بعد هذه الحادثة، أصبح من النادر جداً مرور أحد من هؤلاء الذين يقولون إنهم يعرفون كل شيء.

فقد برياد بعضاً من معجبيه بسبب هذا السلوك الغريب، لم يعد محبوباً كما هو الحال في السابق، أغلب نساء شارعنا مولعات بقراءة الطالع وجلب الحظ، وعلى الرغم من أن معظمهن من المتعلمات ويحملن شهادات في الطب والكيمياء والقانون والتاريخ، لكن الفضول في معرفة أحداث المستقبل وقراءة الغيب، ليس من السهولة مقاومته من قبل النساء في محلتنا.

في أحد النهارات، مر في شارعنا رجل نحيف طويل القامة،

بلحية مشذبة جيداً وبهندام حسن، يرتدي بذلة رسمية من ثلاث قطع، تتدلى من جيب سترته سلسلة ترتبط بساعة قديمة يضعها في الجيب الصغير على جهة اليسار، قال لنا إنه يقرأ الطالع، لكنه إمتنع عن تقديم أي مساعدة تتعلق بجلب الحظ، كان الرجل مريباً بعض الشيء وغريب الأطوار، يتحدث بصوت كأنه يخرج من صدره مباشرة، يمرر يده اليمنى نحو جبينه من وقت لآخر ثم يواصل حديثه من حيث إنتهى.

بدون أن يرتكب أي خطأ، يعرف هذا الرجل النحيف اسماء أفراد أي عائلة بمجرد أن يذكر أمامه اسم فرد واحد منهم، ثم يذكر سنة ميلادهم واحداً واحداً ووظيفة الأب وبعضاً من صفاته وعاداته وحتى يعرف على أي جهة ينام في الليل.

ليس هذه الأشياء وحدها هي التي جعلت الناس يثقون به ويحترمونه، سلوك برياد الغريب معه وعلى غير عادته مع الغرباء هو ما جعل النساء تطمئن إليه كثيراً، فعندما شاهد برياد هذا الرجل للمرة الأولى، إقترب منه بهدوء يتشمم خطواته وهو يمشي، نظر إلى وجهه كأنه يعرفه منذ زمن طويل ثم إبتعد عنه من غير أن ينبح عليه، بعد أن رأت النساء ذلك استغربن في بداية الأمر لكنهن شكرن برياد لانه لم يطرده.

في بادىء الأمر، تجرأت أم مناف التي كانت تقف عند باب بيتها لتراقب الناس، تقدمت نحو الرجل الغريب وراحت تتحدث إليه وسط الطريق من دون أن تخجل، فهذا الأمر، وأعني الحديث مع الرجال الغرباء لا يعد سلوكاً مقبولاً في محلتنا، لكن أم مناف كانت تريد أن تمتحنه وتكتشف بنفسها حقيقته الغامضة، لتتأكد فيما إذا

كان كذاباً أم أنه يقول الحقيقة.

نظر إليها المشعوذ نظرة سخرية وقال لها:

- هذه أول مرة اسمح فيها لأحد ما أن يختبرني، وهي آخر مرة أيضاً.

قرب فمه من أذنها وهو يتحدث لها عن أمور شخصية جداً، تتعلق بأسرار حياتها الزوجية، شهقت وكادت روحها أن تخرج من فمها من دقة الأشياء التي كان يقولها وكأنه يراقب حياتها على شريط سينمائي.

بعد محاولة أم مناف الجريئة، أصبح لدى النساء الأخريات شجاعة للتقرب من هذا المشعوذ، فتحت له أم نوار باب بيتها ودعته الى الجلوس في إرجوحة حديقتها، دخلت مطبخها لتأتي له بقدح من العصير، عادت بعد دقائق، فوجدت أغلب نساء شارعنا قد دخلن حديقتها وطوقن الرجل من كل إتجاه ويتوسلنه قراءة طالعهن، طلبت منهن الهدوء والجلوس على بساط وضعته على عشب الحديقة، وإنتظار أدوارهن واحدة بعد الأخرى، فأمتثلت جميع النساء لطلبها.

رفع المشعوذ رأسه إلى أمام وهو يمسك بباطن كف شروق التي سبقت الجميع وتقدمت نحوه وهي تتوسله أن يخبرها عن مستقبلها، ضغط على كفها وهو يوزع في الوقت نفسه نظراته الحادة بين وجوه النساء الآخريات ويخيفهن، وضع يده اليمنى على جبينه وبعد دقيقتين من التأمل قال مخاطباً الجميع:

- ليس لأي منكن مستقبل في هذا المكان.

بعد مدة أخرى من الصمت والترقب، كاد معها أن ينفد صبرهن عليه، أصدر حشرجة من صدره وعاد يواصل كلامه:

- آجلاً أم عاجلاً، ستغرق بكم هذه السفينة.

- يا سفينة؟!

نزلت هذه الجملة مثل الصاعقة على رؤوسهن وهن يتساءلن عن أية سفينة يتحدث هذا المشعوذ، وقبل أن تتجرأ إحداهن وتسأله مزيداً من التوضيح، قال بعد أن غير نبرة صوته:

- الإنسان يولد في هذه الحياة دون رغبة منه ويسقط رأسه على ظهر السفينة التي صادف وإن ولد عليها... في محيط هذا العالم الكبير ترسو سفن صغيرة، كل واحدة منها تحمل على ظهرها مجموعة من الناس ترتبط مصائرهم ببعضهم، بعض هذه السفن كبيرة بحجم قارة، وبعضها بحجم وطن وأخرى بحجم محلة صغيرة، كلما كانت السفينة كبيرة كانت العلاقة بين ركابها ليست جيدة، والعكس هو الصحيح، محلتكم هذه سفينة صغيرة، عندما تمر في سمائها الطيور تعرف إنها تحلق فوق سفينة صغيرة، إنتم لا تعرفون ذلك، لأنكم منذ وجودكم على ظهرها وهي ساكنة في مكانها وإن الطفل الرضيع، عندما ينام على سرير ساكن لا يتحرك، يشعر إن حدود هذا السرير هي حدود العالم، إنتم أطفال هذا المركب الذين تعيشون عليه منذ عقود من دون أن يتحرك بكم، الناس قبل الآف السنين كانوا يعيشون على الأرض من دون أن يشعروا إنها تدور بهم مثل سفينة في فراغ لا حدود له.

صمت قليلاً وأرخى يد شروق من يده، ثم عاد وتمسك بها من جديد:

- أريد أن أقول شيئاً مهماً فأرجو منكن الإنتباه، يعيش الإنسان في هذه الدنيا بقدرين، الأول هو قدره الشخصي، والثاني هو قدره

الإجتماعي، هل تفهمنَّ ماذا أقصد؟ إنتظر قليلاً ولما لم يسمع جواباً واصل حديثه وهو يرفع رأسه عالياً كأنه يخاطب المحلة كلها.

من هذه اللحظة أنصحكم، من هذه اللحظة بالذات، أن تفكروا بقدركم الشخصي فقط، هل تفهمون؟ فكروا بقدركم الشخصي فقط، من أستطاع منكم أن يترجل من السفينة هذه الساعة فليترجل فوراً.

المحيط الذي تمضون فوقه يبدو لكم هادئاً، أليس كذلك؟ كلا يا سادتي... والله ليس هادئاً أبداً، إن الإعصار يلوح في الأفق، والعواصف قادمة لا محالة، من يريد أن يجرب الغرق فليبقى، ومن يريد السلامة فليهرب اليوم قبل الغد، إقفزوا إلى قوارب النجاة التي تنتظركم وإذهبوا بعيداً عن هذا المكان.

الغربة ليست أمراً هيناً، أنا أعرف هذا جيداً، لكن السماء كتبتها عليكم، ولا مفر لكم من هذا القدر، ستعيشون غرباء، سواء أبقيتم هنا في هذه المحلة أم هاجرتم إلى المدن البعيدة، لقد بدأت رحلتكم مع العذاب فاستعدوا لها.

تعالى نحيب النساء ونزلت الدموع تحرق الخدود من هذه الأنباء التعيسة التي نزلت على رؤوسهن دفعة واحدة.

صمت المشعوذ لحظة، ثم رفع رأسه يتابع طائراً صغيراً يحوم في فضاء الحديقة، وعاد يخاطبهن بعد أن غيّر نبرة صوته مرة أخرى وأصبح واطئاً:

اسمعوني، لا تضيعوا وقتكم، هذا ليس وقتاً للبكاء، هذا وقت الإستعداد لرحلة طويلة من العذاب، لا تفكروا ولو لحظة في البقاء هنا، سارعوا إلى الهرب لأن الإعصار يقترب بسرعة جنونية.

قال ذلك وهو يمثل دور من يتمايل كما لو أنه على متن قارب

تتلاعب به الأمواج: إنظروا إليّ، لقد بدأت الأمواج تطوحني يميناً وشمالاً، هل ترونني؟

إعتدل في وقفته ثم راح يتمشى في الحديقة بهدوء ويقطع بعض الأوراق الذابلة من شجرة البرتقال ثم إلتفت إليهن وقال بهمس:

- أنا لا اتمنى لكم الغربة، ولا أحب أن أراكم تعانون أهوالها. ليس لدي مصلحة شخصية في بقائكم ورحيلكم. مررت صدفة في شارعكم وقررت أن أقول لكم الحقيقة. والحقيقة مزعجة في معظم الأحيان. بصراحة أنا متحير في أمري، لا أستطيع أن أنصحكم بالبقاء كما ينتابني الحزن عندما أدعوكم للهروب، لانكم في لحظات عصيبة وقاسية يتساوى فيها ألم اللقاء مع ألم الرحيل ستتذكرونني وتقولون لقد ورطتنا.

ستعيشون غرباء بدموع لا نهاية لها، أنظر اليكم الآن، وأنتم في بلاد الثلوج والشتاءات الحزينة، تتدفأون بالذكرى، ستغدو محلتكم هذه مجرد أناشيد وأغان تنهمر مع ذكراها الدموع، أراكم في دروب موحشة ومظلمة تتلفتون فيها تلفت الغرباء التائهين، يرفع أحدكم رأسه للسماء بقلب يتفطر من الألم ويقول:

- ماذا فعلنا أيتها السماء؟ ولا يأتيه الجواب.

قال لهن ذلك، ثم وضع يده على جبينه مرة أخرى، وصمت بعد دقيقتين ريثما تجف الدموع.

- هل تعرفن أغنية الطيور والشمس.

- إي هاي أغنية يا طيور الطايرة مري بهلي، أجابت أم فاروق.

- صحيح... هذه الأغنية ستكون مثل وطنكم للسنوات القادمة، ستغنونها آلاف بل ملايين المرات، عندما تتعبون، ستأتي أغنية أخرى،

هل تعرفونها؟ أنا سأقول لكم:

- غريبة الروح.

هذه الأغنية هي الوطن الجديد لكل منكم، عندما تتقدم الغربة منكم بحياء ثم ترميكم في اللاأمل، تكون (غريبة الروح) هي نشيد الحزن الطويل، عندما تنسون كلماتها سيكون الوطن مجرد ذكرى قديمة تشتاقون إليه ولكنكم لا تفكرون بالعودة ثانية، تذكروا هذا أيضاً.

استدار بنظرته العميقة نحو شروق، التي مازال يمسك بكفها وقد أصفر وجهها:

- سيتقدم لك شخص طالباً يدك من أهلك نهاية هذا الشهر.

قبل أن تنفرج أساريرها إبتهاجاً لهذا الخبر السعيد، عاد يحدق في وجهها ثم أضاف:

- لا توافقي، أرفضيه علي الفور.

- وإذا عاد وتقدم لي ثانية؟!

- أرفضيه مرة أخرى.

- ولكن...

- يا ابنتي، أعرف إنه يحبك، والله أعرف ذلك، وأعرف إنك تذوبين فيه حباً، وأعرف قصتكما كلها، وأعرف إلى جانب ذلك إنه رجل مخلص ووفي وناجح في حياته، وسيم وقوي البنية وسيترك في أحشائك جنيناً منذ اللية الأولى، ولكن ليست هذه هي القصة كلها، أرفضيه من دون تردد.

- ليش؟!!!

قالت ذلك بحرقة وقد بح صوتها وتقطعت الحروف في فمها.

- الحقيقة مؤلمة، وافقي وإرتاحي إذا كان كلامي لا يعجبك، ماذا يهمني أنا، ماذا يهمني إذا كانت الحياة تعجبك كأرملة، تهتم لأمر صبي يتيم لم ير أباه في حياته.

قال هذه الكلمات متشنجاً ونهض يغادر المكان وسط حيرة شروق وتوسلات النساء به بالبقاء قليلاً وإخبارهن المزيد عن المجهول الذي ينتظرهن.

من دون أن يعبأ بهذه التوسلات، توجه المشعوذ نحو الباب بخطوات ثابتة، استدار نحو جهة الشارع العام وراح يمشي بسرعة وهو يتعمد إبراز صدره للأمام، تبعه برياد حتى نهاية الزقاق يودعه بإحترام، وعاد رافعاً ذيله مهرولاً نحو بيت عمو شوكت يتسلق الجدار نحو الحديقة.

تجمدت أقدام النساء في أماكنهن، وراحت الواحدة منهن تنظر في وجه الأخرى كإنها غير مصدقة أذنها، طلبت منهن صاحبة البيت الجلوس في أماكنهن وراحت تعد لهن الشاي، وقفت أم حسام وتنحنحت ثم قالت بصوت يشبه صوت زوجها:

- هذا الرجل جاسوس، لديه أجندة خارجية ويريد أن يخيفنا، إن هدفهم هو إفراغ البلد من الطبقة الوسطى.

- صحيح، أنا اتفق معك إنه يشبه لنكولن، قالت لها واحدة منهن تعمل مدرسة للتاريخ.

جاءت أم نوار بالشاي وراحت تثرثر معهن، بعد قليل، تداخلت تعليقاتهن من دون إنقطاع، ولا يمكن لاحد أن يفهم منها شيئاً، وعندما أعلنت ساعة بغداد الثالثة ظهراً نهضن من اماكنهن وتفرقن.

كانت شروق قد غادرت قبلهن، وجلست في غرفتها تبكي حظها

العاثر مرة وتشتم مرة أخرى هذا المشعوذ الكذاب، الذي ربما أرسلته إحداهن بعد أن دبرت هذه الخطة الشيطانية لإبعادها عن حبيبها، وذلك لغاية في نفسها لا يعلمها إلا الله.

- وإلا كيف أفسر هروبه بعد قراءة طالعي الشخصي لوحدي من دون الأخريات؟!

قالت ذلك لنفسها ثم كررت بصوت مسموع وهي تخاطب صورتها في المرآة:

- سأوافق حتى لو تزوجت (خليل) ليلة واحدة فقط.

## (١٢)

كنت في السابق، أعيش قصة حب نادية وأحمد وأستمتع بها مثل مسلسل تلفزيوني تقع أحداثه مباشرة أمامي، كنت أعرف إنهما يحبان بعضهما، ولكن ما معنى أن يحبا بعضهما؟ كيف يحدث هذا الحب؟ لماذا تتغير ملامحها حين تلتقيه؟ كل هذا لم أكن أعرفه، كنت أعرف الحب من الخارج، من أحداث قصة حب تعيشها صديقتي، وليس من داخل الحب نفسه، ليس من وسط المشاعر السرية التي تولد في الروح وتشغل البال وتجعل القلب ينبض سريعاً.

جاء فاروق وبكل هدوء ووقف أمامي وجهاً لوجه وقال لي:

ـ أنا أحبك.

سلبني راحة البال وأدخل القلق إلى نفسي، رحت أفكر به طول الوقت، صرت أبحث عنه في الطريق وألتفت في كل مرة أمر فيها عند باب بيته، اسمه على طرف لساني وصورته في خيالي، شعرت بالحب مثل تيار كهربائي خفيف يمس روحي، أحببت الأغاني والموسيقى وتعلقت بالتلفزيون، لم تعد تستهويني الرسوم المتحركة، لا عدنان ولينا، ولا السندباد ولا ياسمينة، صار عندي أبطال جدد غيرهم، كاظم الساهر وهيثم يوسف وحاتم العراقي وإسماعيل الفروجي ومهند محسن.

تساليني ليش أحبج.. ليش أحبج

تسأليني عن عذابي عن جنوني عن حنيني

الناس ما سألوا شمسهم ليش تنطيهم ضوه

الناس ما سألوا گمرهم ليش يجمعهم سوه.

لا أسأل فاروق لماذا يحبني ولا أقول له لماذا أحبه، لأن الناس لا يعرفون لماذا تمنحهم الشمس ضوءها، والحب مثل الشمس، يجب أن لا نسأله لماذا يجعلنا نطير في الهواء، ليس صحيحاً هو يحبني لأنني قطفت له من قمريتنا عنقوداً من العنب لم ينضج بعد ووضعته بين يديه، إنه يحبني لسبب آخر، هو لا يعرفه، وأنا لا أعرفه أيضاً.

لكن لماذا لم يكتب لي رسالة ويضع عليها عطراً، حتى أكتب له أنا رسالة وأضع عليها عطراً، كيف سأقول له أنا أحبك أيضاً! هذه هي المشكلة، ليس صحيحاً أن تذهب البنت إلى الولد وتقول له أنا أحبك، هذا أمر غير جيد وغير مريح.

عندما قالها لي أمام الدكان تلعثمت أمامه، ولكنني ابتسمت له

في اليوم نفسه، ابتسمت له إبتسامة فيها معنى، كنت أريد أن أقول له أنا أحبك، لا.... كنت أريد أن أقول له أنا معجبة بك، وعندما يرتبك ويتلعثم أمامي أقول له أنا احبك.

هل أنا أحبه؟ لماذا لم أكن أشعر بهذا الحب قبل أن يقولها هو؟!

هل كان الحب نائماً وأستيقظ فجأة في قلبي؟ أم إننا نحب الحب نفسه، نحب أن نعيش قصة مشوقة ليس مهماً من هم أبطالها؟.

أختفى كل شيء من حياتي وبقي هذا الحب يشغلني.

قبل أن أنام، فتحت النافذة ونظرت نحو بيته، كانت غرفته نصف مضاءة، كان في هذه اللحظة يكتب لي رسالة طويلة، قلت هذا لنفسي ورميت جسدي على السرير.

في الصباح كانت مشاعري فاترة، لقد تغير كل شيء فجأة، لم يعد فاروق يشغل بالي، كنت أفكر باشياء أخرى، ولكنني عندما وجدته ينتظرني قريباً من باب المدرسة، إرتبكت ثانية وخفت أن اتلعثم أمامه مرة ثانية، ها هو يتقدم نحوي، ماذا سأقول له؟ هل أنا معجبة به أم انني أحبه؟ أم إن شيئاً من هذا لن يحصل؟

ها هو يقترب مني بهدوء كمن يسدد ضربة جزاء ليباغت بها حارس المرمى، يداي ترتجفان وقلبي يخفق وقبل أن يقول كلمة واحدة، قلت له بهمس: فاروق آني أحبك، وركضت نحو باب المدرسة، كنت سعيدة لانني تخلصت من ثقل هذه الكلمة، أخرجتها من روحي ورميتها عليه، وفي الوقت نفسه كنت خائفة، هذه أول مرة في حياتي يصير لدي سر خاص، مشاعر خاصة، لا يمكن أن أحكيها لماما وبابا.

بعد ذلك بأيام، صرنا نكتب الرسائل لبعضنا ونضع عليها عطوراً، صرنا نلتقي في الخفاء لقاءات سريعة وخاطفة، صارت محلتنا أجمل،

اتنفس فيها الهواء بعمق وأشتم عبير الحدائق بنشوة، في المساء أنتظره عند باب البيت، يمر من أمامي، يبتسم لي وأبتسم له، أركض نحو المرآة وأنا أذوب من الحب.

هل أنتم مثلي عندما تقعون في الحب تذوبون؟ لماذا نحن نذوب من الحب؟ من إخترع هذه العبارة الجميلة وجمع كلمة (نذوب) مع كلمة (نحب)؟ أكيد إن أول من قالها ذاب بعدها من الحب وإختفى من هذا العالم، هل تتذكرون قصة ماندو الذي ذاب في حب الفتاة الجميلة جوانا وصار جدولاً.

عاشت نادية تفاصيل قصتنا، لكنها كانت غير متحمسة، كانت تكرر أمامي بين مدة وأخرى جملة لا أحبها ولا أعرف كيف أرد عليها:

- إنت تحبين فاروق أكثر من حبي لأحمد.

أنا نفسي لا أعرف، هل حقاً أنا أحبه أكثر من حبها لأحمد؟! كيف أعرف ذلك؟ هل يمكن قياس الحب بالمسطرة؟

أنا أحبه وأحب بابا وماما ونادية وجدتي ولا أعرف من منهم أحبه أكثر، لكنني أفكر بفاروق أكثر منهم كلهم، بل أفكر به طول الوقت. سألت نادية نفس سؤالها كي أعرف الجواب منها:

- إنت تحبين أحمد أكثر لو ماما؟

ضحكت نادية لأنها لا تعرف الجواب، أنا أيضاً لا أعرف الجواب كما قلت لكم، أخذتها من يدها ورحنا نتمشى في شارعنا ولما بلغنا دكان أبي نبيل، توقفت في منتصف الطريق كأنها تذكرت شيئاً مهماً وقالت:

- اسمعيني، أنا أحب ماما ولكن لا أكتب لها رسائل سرية، وأحب بابا لكن لا أشتاق له مع كل أغنية، عندما نلتقي أنا وأنت لا يخفق

قلبي بقوة، أنا أكتب الرسائل لأحمد وحده، اسمع الأغاني من أجله وحده، عندما ألتقيه أريد أن أطير.

كانت سعيدة لتوصلها لهذه الإجابة، نظرت في وجهي تنتظر دهشتي، كنت أنا حقاً مندهشة من جوابها، قلت لها مازحة:

ـ نادية إنت فيلسوفة.

رفعت رأسها إلى فوق ورسمت على وجهها علامات الغرور المصطنعة وحاولت أن تقول مزحة أو شيئاً آخر، لكن أحمد مرَّ قريباً من الدكان وأنساها نفسها في الحال.

## (١٣)

عاد عمو شوكت من العمل ولما وصل الى باب بيته، استغرب عندما شاهد خروج مجموعة من نساء المحلة من بيت أم نوار دفعة واحدة، وهن يتوجهن نحو بيوتهن والدموع تملأ عيونهن، وقف في وسط الطريق، وتصاعدت دقات قلبه خوفاً من أن يكون مكروه قد حدث لأحدهم، حيث لم يتعود من قبل، رؤية هذا العدد من النساء يجتمعن في مكان واحد، وفي هذا الوقت من الظهيرة.

حاول أن يفهم الأمر من برياد، لكن الأخير كان يدور حوله من دون أن ينظر في عينيه، خمن عندها مع نفسه، إنهن يودعن عائلة

جديدة جاء موعد هجرتها، أو أن أحداً ما حصل له شر ما لا سامح الله، لم يطمئن قلبه حتى طرق باب البيت وخرجت له أم نوار وعيونها متورمة من البكاء:

- سلامات أم نوار؟!

- سلامتك أبو غايب ماكو شي.

- شلون ماكو شي وأنت عيونج ناشفة من الدموع.

- لا والله ماكو شي، هذا واحد يقرا الطالع قهرني، يكول راح تغرگون.

- راح نغرك؟!! أكثر من هذا الغرق وين أكو، المبلل ميخاف من المطر.

ودعها ومشى حزيناً نحو بيته يتبعه برياد، تناول غداءه بعد أن غير ملابسه وحاول أن ينام قيلولته المعتادة، ولكنه لم يتمكن من النوم هذه الساعة، نهض وأرتدى بدلة العمل وخرج وبرياد يرافقه كظله وهو يحمل أدواته بيده، ويدفع ماكنة قص العشب بالثانية، كان الدور هذا اليوم على بيت أم سالي، مرّ عليه وقت طويل نسبياً من دون أن يدخل اليه ويعتني بحديقته.

فتح الباب ودخل الكراج، وضع صندوق العدد جانباً، دفع ماكنة قص العشب إلى طرف الحديقة وراح يمررها على هيئة خطوط طويلة، تأسف كثيراً لنمو الأدغال وبعض النباتات الغريبة في السواقي، وسقوط بعض ثمار شجرة النارنج الناضجة على الأرض.

إنتهى من قص العشب، ترك الماكنة ممدة في مكانها يلهو فوقها كلبه الصغير، راح يجتث السيقان البرية الطويلة التي نبتت في السواقي، نظف الأرض من الأوراق اليابسة التي سقطت عليها، فتح

صنبور ماء الحديقة وراح يغسل الأشجار من الغبار.

عاد وترك الماء يجري في السواقي، ودخل البيت يتفقد المواسير والأسلاك الكهربائية، تأكد من إغلاق المداخل والمخارج، جرب فتح الأبواب المغلقة ليطمئن من إغلاقها بإحكام ووجد إن كل شيء على مايرام، لكنه إتخذ قراراً لم يكن في وارد حساباته، هو أن يتفقد الطابق العلوي من البيت، صعد السلم بخطوات متعبة، فتح باب الغرفة الأولى ووجده غير مقفل، دفع الباب ودخل إليها، كانت الغرفة فارغة تماماً من الآثاث وعلى أرضيتها التي يكسوها الغبار، سقطت صورة فوتغرافية مقلوبة على ظهرها، إلتقطها ورفعها من على الأرض وقربها من عينيه يتفحصها، كانت صورة عائلية قديمة، يظهر فيها أبو سالي وزوجته يجلسان على أريكة في وسط االحديقة، في حضن الأم تجلس الابنة الصغرى سولاف، بينما تقف بناتهما الأربع الأخريات خلفهما، في عمق الصورة يقف رجل نحيف بهندام حسن ولحية مشذبة، لم يتعرف عليه، ولم يهتم كثيراً لوجوده.

نزلت من عينيه دمعة وسقطت على ارض الغرفة، أخرج منديله وجفف مقلتيه وعاد يدقق في ملامح وجوه البنات واحدة تلو الأخرى، إندهش عندما أكتشف أن أثر الساعات التي طبعها على معاصمهن اليسرى في أيام طفولتهن لا زال واضحاً يشير إلى وقت غير محدد بالضبط.

وضع الصورة في جيب بدلة العمل ونزل السلم، جلس من التعب على إحدى درجاته وهو يحاول حبس دموعه، تذكر في الحال زوجته التي غابت عن عينيه طويلاً، تذكر إنه الآن بلا عائلة، ولا بنات صغيرات يعض على معاصمهن، كان أحوج ما يكون في هذه اللحظة

إلى أن تخرج له من هذه الصورة فتاة صغيرة ونحيفة تشبه باجي نادرة وتقول له:

ـ لا تبكِ يا بابا.

ظلت كلمة بابا ترن في رأسه، فهو في حياته كلها لم يسمع كلمة بابا، أخرج الصورة ثانية من جيبه وتحدث معها:

ـ حسناً فعلت أبو سالي، حين ذهبت ببناتك بعيداً، إن المحلة لم تعد مكاناً مناسباً للعيش، الحصار والحكومة خربا حياتنا يا صديقي، يوماً بعد يوم تصبح الحياة صعبة في هذا المكان، لقد تغيرت أشياء كثيرة بغيابكم، حتى بيتكم هذا صار مسكناً للوحشة والألم.

رفع رأسه نحو النافذة التي يدخل منها ضوء الشمس نحو السلم وقال:

ـ هل هذا الغبار الذي يدخل من النوافذ على شكل حزمة عريضة من شعاع الشمس يعود لكم، هل هو أنفاسكم الثقيلة التي نسيتموها في الفراغ ، أنفاسكم التي نسيت أن تذهب معكم، في كل ذرة غبار هناك ذكرى تريد أن تبقى هنا معلقة في الهواء، هناك حلم لم يفسر بعد، هناك أغنية نسيتها سولاف، وضحكة تركتها سندس، هذا الغبار هو أنتم يا أبو سالي، هذا غبار أرواحكم.

هل تتذكر عندما دعوتني لاول مرة وجلسنا في الحديقة قبل عشرين عاماً نتعرف على بعضنا؟ منذ ذلك المساء البعيد ونحن أخوة، أخوة نتقاسم الأفراح والهموم ونلتقي كل مساء، ها أنا أجلس عند دكة مغبرة على سلم بيتك وحيداً تقطعني الوحشة، لا زوجة تهتم بأمري، ولا فتاة تقول لي لا تبك يا بابا.

سأبكي يا أبا سالي، سأبكي حتى ينشف نهر دموعي، لقد رحل

سيسكنكم جيران آخرون وسيرحل غيرهم، وأنا هنا وحيد. ليس لدي أهل أذهب إليهم، كنتم أهلي وأحبابي وفقدتكم. أنا خائف يا صديقي، خائف أن أموت وحيداً. هل تعرف وحشة أن تموت وحيداً؟

ذرفت عيناه دموعاً حارة راح يمسحها بكم قميصه وحاول النهوض والذهاب إلى بيته لكنه شعر بالأعياء والتعب والرغبة مجدداً بالبكاء، كان صدره يختنق بالألم:

لا تشغل بالك على بيتك يا صديقي، فأنا أهتم به وأهتم بحديقتك كما أهتم ببيتي وحديقتي. أنا أهتم ببيوتكم كلكم، هذا واجبي ياجار العمر، بعد أيام سأبيع هذا البيت لناس غرباء وأرسل لك ثمنه. سيأتي فيه جيران غيركم، لا أعرفهم ولا أريد أن أعرفهم، لأن عمري لا يسمح بصداقات جديدة، العمر يا جاري العزيز لا يسمح بصداقات جديدة، أنا على أبواب التقاعد، ولا أدري ما الذي عليّ أن أفعله بهذا الوقت الكئيب.

سقطت دموع ساخنة جديدة على السلم، أعاد الصورة إلى جيبه ونهض يهم بالخروج.

أغلق الأبواب الداخلية من خلفه، حمل أغراضه وخرج من البيت، في هذه اللحظة إنتبه إلا إن برياد غير موجود معه، عاد يفتش عنه في زوايا الحديقة ولم يعثر عليه، صفر له كما تعود أن يناديه لكن الكلب أختفى عن الأنظار، عاد وفتح الأبواب وصعد السلّم وفتح الغرفة التي وجد فيها الصورة لكن من دون جدوى، خمن تخميناً أخيراً، أن الكلب سبقه إلى البيت، حمل أغراضه ثانية ودفع ماكنة قص العشب أمامه وخرج من البيت المهجور بعد أن طوق الباب بالسلسة الحديدية.

في نهاية الزقاق، كان برياد يشب على سيقان رجل طويل كأنه

يتحدث معه، فرك عمو شوكت عينيه لهذا المنظر الغريب، وعندما عاد يركز نظره وهو غير مصدق لما رأى كان الرجل قد إختفى بسرعة البرق، وعاد الكلب يهرول مسرعاً بإتجاهه لاعقاً مقدمة قدميه.

من غرابة ما شاهدت عيناه مضى عمو شوكت من دون أن ينتبه إنه يمشي في الإتجاه المعاكس لبيته، وبعد أن تخطى بيوتاً عدة عاد إليه رشده واستدار يدفع ماكنة العشب بقرقعتها المزعجة ليعود إلى بيته، بدل أن يوجه شكوكه نحو سلوك الكلب صار يشك بعقله هو.

## (١٤)

منذ أن زارها المشعوذ، لم تعد محلتنا كما كانت، أصبحت كئيبة بعض الشيء، وأصيب أهلها بوسواس الخوف من المستقبل، بعد أن فقدوا الأمل بعودة الهناء إلى حياتهم. المشعوذ في الحقيقة ليس مسؤلاً عن هذه الكآبة، إنه فقط قال لنا إنكم غير سعداء، هو مثل الطبيب الذي يقول لك أنت مريض ويجب أن تأخذ العلاج المر فوراً.

الرجال والنساء والأطفال في هذه الأيام، يجلسون في حلقات صغيرة ويحتلون هذا الركن أو ذاك، يستعيدون نبوءات هذا الرجل مع بعضهم ويفسرونها كلٌ من وجهة نظره، وهم متفقون على إن كل ما كان يقوله صحيح، لكنهم يختلفون على نسبة الحقيقة في كلامه.

بعضهم يقول إن كل ماقاله سيحدث بالضبط، حتى ذهب بهم الأمر إلى أن يصدقوا إننا نعيش الآن على ظهر سفينة غاطسة في بحر يقع تحت اقدامنا مباشرة، وإن هذه السفينة ستتحرك بنا ذات يوم أو ستغرق في مكانها، ويرى القسم الآخر إنه كان يبالغ كثيراً ويخلط الواقع بالخيال، لكن أشياء غريبة صارت تحدث من دون أن نعرف كيف صارت تحدث وخاصة في هذه الأيام، في بيت أبو مناف حدث ثقب صغير تحت البلاط وأخذت تتسرب منه المياه المالحة إلى داخل البيت، وبعد أيام صار هذا الثقب كبيراً وخرجت منه بعض الأسماك المضيئة، وقالت أم مروة أن بيتها يتأرجح في الليل كما لو أنه قارب صغير تمر تحته موجة تختنق وتريد أن تعبر إلى الجانب الثاني، وقالت أم نوار إنها شاهدت حيتاناً صغيرة تظهر في مطبخها بسرعة ثم تتبخر في الهواء، وأنا أيضاً، شاهدت أشياء غريبة ولكنني لا أستطيع أن أقولها، لأن الناس لا يصدقوننا عندما نقول لهم أشياء لا تدخل عقلهم، وأنا أستغرب لماذا هم يصدقون عقلهم الصغير ولا يصدقوننا، عندما لا يريد أن يصدقك الناس فلا تقل لهم الأشياء التي تعرفها.

كان أبو حسام له وجهة نظر مختلفة، فهو يعتقد إن هذا الرجل (ويقصد المشعوذ): ماهو إلا شخص كذاب ودجال، يعمل لمصلحة دول أجنبية، تريد أن تبث الرعب في نفوسنا لإننا صمدنا أمام الحصار، أمام هذا الرأي الذي يقوله أبو حسام بثقة عالية يسكت الجميع، ليس من مصلحة أي شخص تبرئة المشعوذ والدفاع عنه، لأن لا أحد منا يعرف عنه شيئاً غير صورته التي ظهر فيها فجأة في حياة المحلة، لكننا وفي قرارة أنفسنا كنا نعتقد إنه يقول الحقيقية، فها هي الأمور

تتعقد أمامنا يوماً بعد يوم، وحياتنا في هذا المكان أصبحت قاسية جداً، وصار من الصعب علينا معرفة ما يخبئه لنا المستقبل، سفينتنا تتأرجح وسط تلاطم الأمواج العاتية وأن موعدنا مع الرحيل هو مسألة وقت لا أكثر.

خير دليل على صحة تكهنات المشعوذ هو دكان أبى نبيل الذي أصبح فارغاً، أختفت منه مواد كثيرة، فرغت الرفوف العالية وتجمع الغبار فوقها، ولولا الحصة التموينية التي يتسلمها من الحكومة ليوزعها بيننا كل رأس الشهر لإنتهى الأمر بإغلاق هذا الدكان منذ وقت طويل.

صارت شوارعنا متعبة وفيها حفر كثيرة والسيارات التي تمشي فيها صارت قديمة وتهشم زجاجها، ظهر التعب على وجوه الآباء، وراحت الأمهات يصنعن البدائل لكل شيء لم يعد موجوداً، أخرجت أمي ماكنة الخياطة القديمة التي نسيناها ولم نعد نتذكرها، نظفتها ووضعت الزيت في الثقوب الصغيرة على جوانبها ثم سحبتها إلى الصالة، لأننا لم نعد نشتري ملابس جديدة، كان من الأفضل أن نستخدم الملابس القديمة ونعيد خياطتها ونلبسها كأنها جديدة.

دخل الحصار حياتنا بقوة وقلبها رأساً على عقب، فقدت نساء محلتنا أناقتهن، كما لم يعد الرجال مبالين لمظهرهم، حتى مدرستنا أصبحت بناية شاحبة بعض الشيء وتسلل اليأس إلى مديرتها ومعاونتها ومدرساتها، جميعهن بإستثناء ست أروى، أصبحن أكثر عصبية وشروداً في أثناء الدروس، غالباً ما يجتمعن عند باب أحد الصفوف للحديث عن الحصار والهجرة وترك الوظيفة.

كثرت هذه الأيام المسيرات الإحتجاجية والتظاهرات، بين مدة

وأخرى، تدخل المعاونة الى الصفوف وتطلب منا الخروج إلى الساحة، ثم يجري تنظيمنا لنخرج مع المدارس الأخرى إلى الشوارع الرئيسة في طوابير غاضبة نحمل فيها اللافتات التي تندد بالأمم المتحدة، والمجتمع الدولي، ومجلس الأمن، وأمريكا وأسرائيل وبريطانيا وحتى فرنسا.

أنا ونادية، نستغل هذه المناسبات لنلتقي فاروق وأحمد الذين تخرج مدرستهما أيضاً ونلتقيهما في حديقة الزوراء أو في حدائق ساعة بغداد. الحب دائما يؤسس عالماً آخر بعيداً عن الواقع، الولادة والموت والحب، هذه الأشياء الثلاثة لا تهتم للواقع.

أضع يدي بيد فاروق ونجلس تحت ظل شجرة قديمة، حفر على جذعها عشاق كثيرون قبل سنوات حروف اسمائهم الأولى.

- فاروق راح أغنيلك أغنية جديدة.

- صوتك مو حلو بس راح اتحمله غصباً عني.

-أضعف گدامك بس إنت.. وأتمالك نفسي بهل السكتة...

يضحك فاروق ضحكته الطفولية التي أموت عليها، يضحك لأنني أغمض عيني وأغني بكل جدية، كما لو إنني أغني على مسرح أمامه جمهور كبير. لكن صوتي ليس صالحاً للغناء، أنا أعرف هذا ولكنني أريد أن أغني غصباً على فاروق وأجداد فاروق.

يقترب مني في حركة مقصودة، ويحرك أصابعة في الفراغ بحثاً عن أصابعي، أبعدها عنه، اتشاغل عنه بأغنية ثانية، يحاول مرة أخرى ويفشل.

- هي گوة ما أحبك... إزعل إغضب إنفعل

هي گوة ما أريد... من أشوفك أشتعل

يضحك فاروق مرة أخرى:

- إنتِ صدك مجنونة.

- فاروق هي گوة أني أحبك، كلش أحبك ومن أشوفك أشتعل.

يختنق هو من الضحك، أنهض من مكاني وأهرب أمامه لاهية يداعب الهواء ضفيرتي، يتبعني برشاقة رياضي، يتجرأ ويمد يده ليمسك أصابعي، تتمرد أصابعي لثوان ثم تستسلم له، تذوب بين أصابعه ويشب الحريق في روحي، يا إلهي كم هو جميل غزل الأصابع وهي تتدرب على الحب مثل قطط بيض عمياء تولد في البرد.

- فاروق انرك إيدي راح أموت.

يتوقف في وسط الطريق ويطلق ضحكة عالية.

- لتخافين ما راح تموتين.

- ولك اترك إيدي كافي عاد لتصير طماع.

فاروق لا يترك أصابعي، وأصابعي لا تريد من فاروق أن يتركها، وأنا لا أعرف ماذا أريد، عندما يمرر بحركة شيطانية طرف إبهامه على طرف إبهامي، يمشي الضوء في دمي، وعندما ينظر إلى شفتيّ وأعرف ماذا يريد بالضبط، أدير وجهي عنه. في هذه الثواني القليلة التي أدير فيها وجهي عنه هرباً من نظرة عميقة، أصاب بدوخة في رأسي، دوخة من النوع الذي أحبه، أشعر إن رأسي خفيف وأنسى العالم، في هذه اللحظات القليلة، أنسى العالم، نسيان العالم هي نعمة الحب الوحيدة، أعود وأنظر في عينيه وأعرف إنه أيضاً في هذه الثواني ينسى العالم، نحن نعيش من حياتنا ثواني قليلة ننسى فيها العالم، كيف أوضح لكم ذلك؟ هناك طريقة واحدة أستطيع أن أقول لكم فيها ذلك، إن الحب يعمل ضد الذاكرة، لا أعرف كيف يحدث

هناك ولا لماذا يحدث هذا، لأنني فقط أحب هذه الدوخة التي تستمر لثوان قليلة وأنسى فيها العالم.

في اليوم التالي، طرقت باب الصف علينا طالبة من شعبة أخرى، طالبة اسمها شمس كما أتذكرها، سلمت المدرسة ورقة صغيرة، قرأت المدرسة فيها اسمي ثم اسم نادية وقالت:

ـ المعاونة تريدكم بالإدارة.

بدت ست أثمار غاضبة هذه المرة على غير عادتها، وتحدثت معنا بحرقة وألم وهي توبخنا على خروجنا من المسيرة، لكنها مع كل ذلك، كانت امرأة طيبة القلب وسرعان ما يهدأ غضبها، نظرت في وجهنا بعد أن هدأت فورتها بشيء من العتب وقالت:

ـ هذه آخر مرة.

ـ شكراً ست.

خرجنا نضحك فرحاً من غرفتها، في الحب ليست هناك آخر مرة يا ست أثمار.

أنا ونادية لا نتعب من الحب، نحن نذوب في الحب ياست أثمار، مروة أيضاً لا تتعب من نقل الكلام، في كل مرة تذهب إليها وتنقل لها اسماء الطالبات اللواتي يتركن المسيرة ويذهبن إلى الزوراء، وأنا ونادية في مقدمة هذه الاسماء.

صارت ست أثمار لا تحب مروة، وزعلت منها في يوم من الأيام وقالت لها:

ـ لا أريد بعد الآن أخبار عن الطالبات، كل شيء يحدث خارج المدرسة ليس من إختصاص المدرسة، أمرتها بالخروج وأغلقت خلفها الباب بقوة.

ذهبت مروة في مساء اليوم نفسه إلى بيت نادية وأخبرت أخاها (مؤيد):

- أختك تترك الدراسة وتخرج مع أحمد.

غضب مؤيد وأخبر امه وأباه على الفور، صعد إلى غرفة نادية يفتش كتبها ودفاترها، صار يراقبها عندما تخرج من المدرسة، وأصبح من الصعب عليها الخروج من البيت والتجول في وقت العصر في الشارع كما كنا نفعل ذلك دائماً.

في هذا الوقت، صارت نادية تحب أحمد أكثر من قبل، صارت تشتاق له في كل لحظة، حلمت إنها تهرب معه إلى بلاد بعيدة، مثل عدنان ولينا وهما يهربان إلى جزيرة الآمان، كتبت في دفاترها خواطر عن الفراق والحب والسهر والأمنيات، رسمت شموعاً تذوب في ليل بعيد، تغمض عينيها وترمي بروحها في أحضانه، كانت تريد منه أن يدخل عبر نافذتها، أن يباغتها، أن يحتضنها ويقبلها، أن يهمس في أذنها كلمة أحبك الآف المرات، أن يقول لها نادية أموت على عيونك، لكنها كانت محاصرة من أمها وأخيها. في المساء يظهر مهند محسن في التلفزيون ينظر إلى نادية مباشرة ويغني لها:

- خلوا عليك يخافون حارس يحرسك مني.

في أحد الأيام، خرجنا من المدرسة في مسيرة جديدة، كان هذا اليوم هو يوم الجولة الإستعراضية، التي قام بها النائب البريطاني (جورج غالاوي) في شوارع بغداد، تضامناً مع أطفال العراق ضد الحصار.

وقفنا في الشارع الرئيس بإنتظار حافلته الحمراء ذات الطابقين، رفعنا صوراً قديمة للرئيس ورددنا مع مديرة المدرسة الأناشيد

الحماسية. كنا نفكر في الوقت نفسه بوسيلة للتسرب من خلف صفوف الطلاب من دون أن يلحظنا أحد.

قبل وصول القافلة بقليل، تسللنا أنا ونادية خفية إلى الصف الخلفي، ثم تراجعنا إلى الوراء، ولما وصلت القافلة أمامنا بالضبط واندفع نحوها الجميع أسرعنا بإتجاه سياج متنزه الزوراء ومشينا بمحاذاته حتى دخلنا البوابة وتوارينا بين الأشجار، كانت بوابة الزوراء هي لحظة الدخول في النسيان، هي الممر العميق نحو أنفسنا بعيداً عن السياسة، السياسة تأخذ الناس بعيداً، تسرقهم من أنفسهم وتخلط مشاعرهم مع الآخرين، حتى يعود الإنسان لا يعرف نفسه. في إحدى المرات مررنا بالقرب من بوابة الزوراء وجدناها مغلقة ومكتوب عليها (المتنزه مغلق لاغراض الصيانة)، كانت الزوراء هذه تطردنا خارج أسوارها نحو عالم من السياسة والشعارات، صارت الدنيا ضيقة وشعرت بالإختناق، إن وجود بوابة مثل بوابة الزوراء هو نوع من الأمل، هل تعرفون ماذا أقصد؟ لكي أكون واضحة بدرجة كافية أقول لكم... إن الحب يحتاج أمكنة رحيمة أيضاً، إنه يختنق عندما يمتلىء الهواء بالشعارات.

ـ تباً للحصار الجائر، صاحت نادية وهي تركض بلهفة بإتجاه أحمد الذي وصل قبلنا هو وفاروق، نادية تستخدم الحصار الدولي لكسر الحصار العائلي، الحصارات أنواع، يكسر بعضها بعضاً، وضعت يدها بيد أحمد وغابا بين الأشجار الكثيفة.

ـ أضعف كدامك بس أنت... وأتمالك نفسي بهل السكتة.

نجلس أنا وفاروق تحت ظل شجرة، أغني له بصوت خجول أغنية هيثم يوسف بينما يداي تتعرقان بين يديه.

إلتفت الى الوراء، هناك تحت ظل شجرة اليوكالبتوس العملاقة، نادية وأحمد يصنعان لحظة إضافية للحب وينسيان العالم، أرى إبتسامتها من البعيد ويطمئن قلبي.

عشت حياتي كلها أنظر إلى الوراء، أبحث عن إبتسامتها من البعيد ليطمئن قلبي.

## (١٥)

بعد أن غادرت شروق بيت أم نوار وهي مصدومة من كلمات المشعوذ، لم تنم ليلتها تلك، قلّبت في رأسها ما قاله لها عشرات المرات، ليس من أجل أن تتخذ القرار الصحيح، فهي مع قرارة نفسها لا تناقش مسألة زواجها من خليل، هذا أمر مفروغ منه بالنسبة لها.

ما يشغلها الآن ويسبب كل هذا القلق هو ما يخبئه المستقبل ما بعد هذا الزواج:

- وافقي إذا كانت الحياة تعجبك كأرملة تهتم لصبي يتيم لم ير أباه في حياته.

تلمست بطنها وتحسست حركة جنين، كانت قدماه تتحركان بداخلها وتكاد تسمع صوت صراخه، رغم إنها لم تتزوج بعد ولم تحمل به.

تخيلت ليلة زفافها التي خططت لها طويلاً ببدلة العرس البيضاء الطويلة ولون شعرها الأشقر الجديد الذي تنتشر فوقه البقع الصغيرة اللماعة، تخيلت المشتمل الصغير، الذي ستعيش فيه مع خليل وهو يعود إليها بعد الظهر متعباً من وظيفته المرهقة في هيئة التصنيع العسكري، تخيلت كل التفاصيل التي حدثها عنها من أجل العيش سوية، جلست على سريرها وراحت تبكي.

وقعت شروق في حب خليل قبل أقل من سنة، عندما إلتقته للمرة الاولى مصادفة، كانت في ذلك الوقت لم تزل طالبة في سنتها الجامعية الأخيرة، كان هو قد سبقها بسنوات وتخرج مهندساً من الجامعة التكنولوجية، إلتحق بعد التخرج للعمل في إحدى المنشآت السرية التابعة للتصنيع العسكري، جذبها مظهره الأنيق بطوله الفارع ورشاقته وإستقامة جسده ورجولته الطاغية، جذبها بقوة عضلاته المفتولة وهو يرفع أكمامه فوق عقب ساعده، عندما نظر إليها للمرة الاولى، تعثرت أقدامها ونسيت العالم وكادت أن تسقط في الطريق، فهذا هو الرجل الذي حلمت فيه منذ سنوات مراهقتها المبكرة.

لم تكن أحلامها تذهب بها بعيداً في الأمنيات، كل ما تطلبه في حياتها هو هذا النوع من الرجال، شاب بمستوى دخل معقول، وبيت صغير، وسيارة قديمة نوع لادا، لا تعرف على وجه التحديد سبب إختيارها هذا النوع من السيارات، ولكنها لا تستطيع أن تتخيل سواها.

حاولت بكل جهدها أن تتماسك أمام قوة نظرته وتجاوزته في خطواتها، لكنها لم تقاوم إغراء أن تلتفت للوراء التفاتة ألحت عليها لكي تسرق نظرة خاطفة لقوامه الرياضي بإكتافه العريضة.

تصادفت إلتفاتتها مع التفاتة قام بها من جانبه وهو يستطلع

قوامها، في هذه اللحظة إنهارت كل مناعتها التي تدربت عليها أمام إغراءات الطلاب وغزلهم في الجامعة وابتسمت له، تسمرت في مكانها ونسيت أن تواصل سيرها (لقد نسيت العالم مرة أخرى)، تقدم نحوها وسألها عن اسمها.

- شروق

- عاشت الأسامي، نظر في عينيها ثم أضاف: آنسة شروق إكملي طريقك في الإتجاه الآخر وساتبعك، أريد التحدث معك قليلاً إذا سمحت.

غيرت إتجاه طريقها وعبرت الشارع، وإنتظرته هناك وهي تفكر بسحر كلمة شروق التي نطقها أمامها وهو يلثغ بحرف الراء.

سارت معه في ذلك اليوم الى المساء، ونسيت إن عليها أن تعود إلى البيت، كادت تذوب أمامه، تفجرت أنوثتها وراح جسدها يحترق تحت ملابسها.

لم يكن خليل من نوع الشباب اللعوب، كان في هذه المرحلة من حياته يبحث عن الإستقرار، عن المرأة التي تناسبه، فعثر هذا اليوم على شروق، لم يفكر أبداً بإستغلال لحظة ضعفها الواضحة أمامه، حدثها بصراحة عن الزواج والمستقبل والأولاد.

كان ذلك اليوم هو يوم ولادتها الحقيقية، فلم تكن قد شعرت بهذا الكم من السعادة قبله إطلاقاً.

بعد لقائين أو أكثر، قرر أن يتقدم لها رسمياً، طلب منها تحديد موعد مناسب لزيارة عائلتها، غير إن أهلها طلبوا منها أن لا تفكر بالزواج إطلاقاً، عليها أن تكمل سنتها الدراسية الأخيرة ثم تفكر بذلك. عاشت شروق سنة دراسية قاسية، كانت تريد للأيام أن تكون أسرع

الحماسية، كنا نفكر في الوقت نفسه بوسيلة للتسرب من خلف صفوف الطلاب من دون أن يلحظنا أحد.

قبل وصول القافلة بقليل، تسللنا أنا ونادية خفية إلى الصف الخلفي، ثم تراجعنا إلى الوراء، ولما وصلت القافلة أمامنا بالضبط واندفع نحوها الجميع أسرعنا بإتجاه سياج متنزه الزوراء ومشينا بمحاذاته حتى دخلنا البوابة وتوارينا بين الأشجار، كانت بوابة الزوراء هي لحظة الدخول في النسيان، هي الممر العميق نحو أنفسنا بعيداً عن السياسة، السياسة تأخذ الناس بعيداً، تسرقهم من أنفسهم وتخلط مشاعرهم مع الآخرين، حتى يعود الإنسان لا يعرف نفسه. في إحدى المرات مررنا بالقرب من بوابة الزوراء وجدناها مغلقة ومكتوب عليها (المتنزه مغلق لاغراض الصيانة)، كانت الزوراء هذه تطردنا خارج أسوارها نحو عالم من السياسة والشعارات، صارت الدنيا ضيقة وشعرت بالإختناق، إن وجود بوابة مثل بوابة الزوراء هو نوع من الأمل، هل تعرفون ماذا أقصد؟ لكي أكون واضحة بدرجة كافية أقول لكم... إن الحب يحتاج أمكنة رحيمة أيضاً، إنه يختنق عندما يمتلىء الهواء بالشعارات.

- تباً للحصار الجائر، صاحت نادية وهي تركض بلهفة بإتجاه أحمد الذي وصل قبلنا هو وفاروق، نادية تستخدم الحصار الدولي لكسر الحصار العائلي، الحصارات أنواع، يكسر بعضها بعضاً، وضعت يدها بيد أحمد وغابا بين الأشجار الكثيفة.

- أضعف كدامك بس أنت... وأتمالك نفسي بهل السكتة.

نجلس أنا وفاروق تحت ظل شجرة، أغني له بصوت خجول أغنية هيثم يوسف بينما يداي تتعرقان بين يديه.

إلتفت الى الوراء، هناك تحت ظل شجرة اليوكالبتوس العملاقة، نادية وأحمد يصنعان لحظة إضافية للحب وينسيان العالم، أرى إبتسامتها من البعيد ويطمئن قلبي.

عشت حياتي كلها أنظر إلى الوراء، أبحث عن إبتسامتها من البعيد ليطمئن قلبي.

## (١٥)

بعد أن غادرت شروق بيت أم نوار وهي مصدومة من كلمات المشعوذ، لم تنم ليلتها تلك، قلّبت في رأسها ما قاله لها عشرات المرات، ليس من أجل أن تتخذ القرار الصحيح، فهي مع قرارة نفسها لا تناقش مسألة زواجها من خليل، هذا أمر مفروغ منه بالنسبة لها.

ما يشغلها الآن ويسبب كل هذا القلق هو ما يخبئه المستقبل ما بعد هذا الزواج:

- وافقي إذا كانت الحياة تعجبك كأرملة تهتم لصبي يتيم لم ير أباه في حياته.

تلمست بطنها وتحسست حركة جنين، كانت قدماه تتحركان بداخلها وتكاد تسمع صوت صراخه، رغم إنها لم تتزوج بعد ولم تحمل به.

تخيلت ليلة زفافها التي خططت لها طويلاً ببدلة العرس البيضاء الطويلة ولون شعرها الأشقر الجديد الذي تنتشر فوقه البقع الصغيرة اللماعة، تخيلت المشتمل الصغير، الذي ستعيش فيه مع خليل وهو يعود إليها بعد الظهر متعباً من وظيفته المرهقة في هيئة التصنيع العسكري، تخيلت كل التفاصيل التي حدثها عنها من أجل العيش سوية، جلست على سريرها وراحت تبكي.

وقعت شروق في حب خليل قبل أقل من سنة، عندما إلتقته للمرة الاولى مصادفة، كانت في ذلك الوقت لم تزل طالبة في سنتها الجامعية الأخيرة، كان هو قد سبقها بسنوات وتخرج مهندساً من الجامعة التكنولوجية، إلتحق بعد التخرج للعمل في إحدى المنشآت السرية التابعة للتصنيع العسكري، جذبها مظهره الأنيق بطوله الفارع ورشاقته وإستقامة جسده ورجولته الطاغية، جذبها بقوة عضلاته المفتولة وهو يرفع أكمامه فوق عقب ساعده، عندما نظر إليها للمرة الاولى، تعثرت أقدامها ونسيت العالم وكادت أن تسقط في الطريق. فهذا هو الرجل الذي حلمت فيه منذ سنوات مراهقتها المبكرة.

لم تكن أحلامها تذهب بها بعيداً في الأمنيات، كل ما تطلبه في حياتها هو هذا النوع من الرجال، شاب بمستوى دخل معقول، وبيت صغير، وسيارة قديمة نوع لادا، لا تعرف على وجه التحديد سبب إختيارها هذا النوع من السيارات، ولكنها لا تستطيع أن تتخيل سواها.

حاولت بكل جهدها أن تتماسك أمام قوة نظرته وتجاوزته في خطواتها، لكنها لم تقاوم إغراء أن تلتفت للوراء التفاتة ألحت عليها لكي تسرق نظرة خاطفة لقوامه الرياضي بإكتافه العريضة.

تصادفت إلتفاتتها مع التفاتة قام بها من جانبه وهو يستطلع

قوامها، في هذه اللحظة إنهارت كل مناعتها التي تدربت عليها أمام إغراءات الطلاب وغزلهم في الجامعة وابتسمت له. تسمرت في مكانها ونسيت أن تواصل سيرها (لقد نسيت العالم مرة أخرى). تقدم نحوها وسألها عن اسمها.

ـ شروق

ـ عاشت الأسامي، نظر في عينيها ثم أضاف: آنسة شروق إكملي طريقك في الإتجاه الآخر وساتبعك، أريد التحدث معك قليلاً إذا سمحت.

غيرت إتجاه طريقها وعبرت الشارع، وإنتظرته هناك وهي تفكر بسحر كلمة شروق التي نطقها أمامها وهو يلثغ بحرف الراء.

سارت معه في ذلك اليوم الى المساء، ونسيت إن عليها أن تعود إلى البيت، كادت تذوب أمامه، تفجرت أنوثتها وراح جسدها يحترق تحت ملابسها.

لم يكن خليل من نوع الشباب اللعوب، كان في هذه المرحلة من حياته يبحث عن الإستقرار، عن المرأة التي تناسبه، فعثر هذا اليوم على شروق، لم يفكر أبداً بإستغلال لحظة ضعفها الواضحة أمامه، حدثها بصراحة عن الزواج والمستقبل والأولاد.

كان ذلك اليوم هو يوم ولادتها الحقيقية، فلم تكن قد شعرت بهذا الكم من السعادة قبله إطلاقاً.

بعد لقائين أو أكثر، قرر أن يتقدم لها رسمياً، طلب منها تحديد موعد مناسب لزيارة عائلتها، غير إن أهلها طلبوا منها أن لا تفكر بالزواج إطلاقاً، عليها أن تكمل سنتها الدراسية الأخيرة ثم تفكر بذلك. عاشت شروق سنة دراسية قاسية، كانت تريد للأيام أن تكون أسرع

مما هي عليه لكن الزمن والحب معادلة معقدة، عندما نكون مع نحب يمضي الوقت سريعاً مثل قطار، وبإنتظار الحب تدب الدقائق متكاسلة، تمط نفسها كأنها تذهب إلى السرير لتنام.

تخرجت من الجامعة أخيراً، وموعدها مع خليل هو يوم الأحد المقبل ليتفقا على يوم الخطوبة، حتى ظهر المشعوذ وأفسد فرحتها.

تلمست بطنها ثانية، كانت فكرة الجنين الذي تتوهم إنه يتحرك بداخلها تسعدها، ولكنها سرعان ما تجهش بالبكاء، عندما تتذكر إنه سوف يأتي إلى هذه الدنيا من دون أن يرى أباه.

ضاق نفسها وشعرت بشحة الهواء في غرفتها، وضعت عباءة أمها على رأسها وخرجت للشارع من دون أن تستأذن أهلها كالعادة عند خروجها للسوق، أو زيارة صديقاتها في الزقاق المجاور.

مشت بإتجاه الشارع العام وهي لم تقرر بعد، المكان الذي عليها أن تتوقف عنده ثم تعود أدراجها، ظهر أمامها المشعوذ وهو يرتدي ملابس سائق حافلة، أسرعت بإتجاهه ووقفت أمامه لتتحدث معه، غير أنه لم يتعرف عليها، وبدا كما لو أنه مستغرب من سلوكها، تراجع خطوة للوراء وسألها مندهشاً:

- ما بك يا آنسة؟

- أرجوك أخبرني الحقيقة؟

- عن أي حقيقة تتحدثين يا ابنتي؟

- لا تتهرب، أنا أعرفك جيداً، حتى صوتك هذا هو نفسه.

وضع يده اليمنى على جبينه وصمت للحظات وهو يتأمل وجهها، قبل أن يقول كلمة واحدة، توقفت قربه حافلة حمراء، صعد إليها ومضت به مسرعة، ابتسم لها من خلف الزجاج وغاب.

جاء برياد ولحس كاحلها، نظرت إلى الكلب الذي يلهث أمامها كأنه يريد أن يقول لها تعالي.

مشى أمامها وتبعته حتى توقف أمام بيتها، دخلت البيت دون أن تغلق الباب من خلفها.

## (١٦)

مر أحمد أمامنا يحمل كتبه المدرسية من دون حقيبة، وهو يضع بين أصابعه سيجارة مشتعلة يتصاعد دخانها فوق أنفه المدبب ليشكل دوائر تتموج فوق رأسه يبددها الهواء البارد، هذه أول مرة نشاهده فيها وهو يدخن.

خطا باتجاهنا ولما صار قريباً، سحب من سيجارته نفساً سريعاً ثم رماها إلى الأرض وداسها بحذائه:

ـ نادية ممكن أشوفك يم ساعة بغداد.

كانت نادية خائفة من أهلها، وهي لا تريد أن تخلق لنفسها مشاكل جديدة في البيت والمدرسة، ولكنها تموت في أحمد وقد مضى وقت طويل وهي لم تلتق به، سألتني عن رأيي فقلت لها من دون أن أفكر:

ـ أذهبي.

- هل ستأتين معي؟

قلت لها:

- لا.

- لكنني خائفة.

- لا تخافي.

- لكن المطر سينزل بعد قليل.

- نادية لا تكوني مجنونة ما علاقة المطر بالموضوع.

ابتسمت نادية، التي كانت تقول دائماً إنها تحب المطر، تحب الغيوم، وتحب سماع الأغاني تحت المطر، عندما كنا صغيرتين... أعتقد عندما كنا في الصف الثالث الإبتدائي، خرجت ذات مساء مع عائلتها في نزهة وصادف أن نزل عليهم المطر في الطريق، عادت يومها تقول لي: إن ماسحات الزجاج في السيارة هما أجمل شيء رأيته في حياتي، وأن الراديو في السيارة كان يبث موسيقى جميلة، هي أجمل ما سمعته في حياتي، وكانت قطرات الماء تتجمع على الزجاج، فتتحرك الماسحتان بسرعة تجمعان قطرات المطر إلى بعضها، فينزل الماء على حافتي السيارة مثل شلال صغير هو أجمل ما رأيت في حياتي.

كان ذلك شيئاً جميلاً، بل أجمل شيء رأته نادية في حياتها، بقيت أنا كلما صادف إن نزل المطر على زجاج سيارتنا، وتحركت الماسحتان أرى المشهد بعيون نادية، هناك كثير من الأشياء في هذا العالم نحن نحبها بعيون سوانا، نحبها بعيون الذين نحبهم، المطر والزجاج والموسيقى والماسحتان أمثلة جيدة على تلك الأشياء.

هذا هو أول موعد بينها وبين أحمد يحدث بغيابي، فاروق في

رحلة خارج البلاد مع منتخب الشباب في الأرجنتين، ووجودي معها عندما تلتقي أحمد لم يعد أمراً ضرورياً، هي تغيب عن المدرسة وتلتقيه، لم تكن بحاجة إليّ لأكون دليل إثبات أمام أمها، لكنها في اليوم التالي، تستخدمني شاهداً أمام معاونة المدرسة، لتأليف قصة جديدة عن سبب غيابها:

- ست ترى نادية مخطوبة وتخجل تگول.

هذا هو العذر الأخير الذي بقي معي في ذلك اليوم، لقد قلت أعذاراً كثيرة في السابق، بعضها صدقتها المعاونة وبعضها لم تصدقها ولكنها كانت تبتسم في كل الأحوال.

تسرب خبر خطوبة نادية الذي لفقته أنا أمام المعاونة إلى المدرسات، ثم إنتقل بطريقة سريعة لأفواه الطالبات، وتحول بعد ذلك الى أغنية تخص نادية وحدها.

- صدك مخطوبة يا فلانة... وصدك باجر يزفونج.

تغني بيداء في الصف بصوتها الساحر، وسط إيقاعات تصنعها أنامل البنات على الرحلات، بينما تراقب إحدانا الممرات من باب الصف شبه المغلق وهي تنقر بأصابعها عليه.

تصعد وجدان فوق الرحلة وهي ترقص منتشية، تتشجع البنات ويتاقفزن فوق مقاعدهن في لحظة جنون صنعتها إشاعة، يرتفع صوت الإيقاعات وتهتز الخصور وتحل الفوضى، تضرب ست أروى باب الصف بقوة وعصبية لتعيد الهدوء في ثانية واحدة، تحدق في وجوهنا واحدة واحدة، تقف فخورة بنفسها أمام صمتنا المفاجئ ونحن نجلس مثل تماثيل خشبية بلا إدنى حركة، تبدأ شفاهها بالإبتسام ثم تنفجر ضاحكة وتغادر، تعود بيداء للغناء بصوت واطيء، تترك

وجدان الرقصة لنادية وحدها، عندما ترقص نادية على الجميع أن يفسح لها المجال.

في مساء هذا اليوم، كان منتخبنا الوطني للشباب يواجه منتخب كندا في الأرجنتين، فرغت شوارع المحلة من الناس الذي جلسوا أمام التلفزيون، في الدقيقة ٢٣ من المباراة يسجل فاروق هدفاً في مرمى الفريق الكندي، ينزع قميصه الأسود الداكن الموشح بعلم العراق أمام عدسات التلفزيون لتظهر خارطة العراق مرسومة قريباً من قلبه، خرجت المحلة كلها إلى الشارع، وتجمع الصغار يتبعهم برياد عند باب بيت أم فاروق وهم يهتفون:

ـ هكذا يلعب المحاصرون.

نحن الشعب الوحيد في هذا العالم، عندما يسجل فريقنا الوطني هدفاً في شباك الخصم نبكي.

## (١٧)

من الغرائب التي لا يكف برياد عن مفاجئة عمو شوكت والمحلة بها، إن لون ذيله صار أبيض لايشبه لون جسده الأسود، صار منظره غريباً، ليس لدى محلتنا خبرة سابقة بالكلاب، لنعرف فيما إذا كان ذلك يحدث بشكل طبيعي مع الكلاب الأخرى، أم إن الأمر يتعلق بهذا الكلب الغريب الأطوار الذي دخل حياتنا وأصبح جزءاً منها.

ـ الكلاب يغزوها الشيب من ذيولها والقطط من آذانها.

قال أبو حسام ذلك بثقة كبيرة أمام مجموعة من أصدقائه المتقاعدين، الذين تعودوا اللقاء يومياً أمام دكان أبي نبيل، استمع أحد الأولاد إلى حديثهم، وأذاع مضمونه على أصدقائه مع بعض الإضافات بالطبع، بدون تردد تم تبني هذه النظرية حقيقةً علمية ثابتة لا تقبل الجدال، ولزيادة توكيد صحتها صرنا نراقب آذان القطط، ونلاحظ التبدلات التي تجرى عليها مع تقدم العمر، وبالمصادفة وحدها، تحول لون آذان جميع القطط في محلتنا إلى الأبيض.

تبول برياد في هذا الأسبوع أمام بيتين من بيوت الجيران، وهذه من علاماته التي نعرفها، هاجرت إحدى العائلتين منتصف الأسبوع، واستعدت العائلة الثانية للهجرة، القرار النهائي قد تم إتخاذه وبقي التنفيذ، طبعت هذه الأنباء غير السارة علامات الحزن في الوجوه جميعها، إن هجرة عائلة من المحلة لا تقل ألماً عن إستئصال عضو من الجسد.

هاجرت عائلة وجدان هذا الأسبوع، هاجرت وجدان وهاجرت أختها سماح وهاجرت أختها طيبة وهاجر أخوهما مهاب وهاجرت أمهم الدكتورة شفاء وهاجر أبوهم.

أغلق الباب بسلاسل حديدية، وتركت مفاتيحه مع رسالة طويلة موجهة لعمو شوكت فيها كلمة وداع مؤلمة لكل المحلة.

وسط هذه الأجواء الحزينة، ظهر المشعوذ في الشارع ثانية، وقد تخلص من لحيته تماماً، ووضع على عينيه نظارة سوداء غامقة، من تلك التي يستخدمها مكفوفو البصر في العادة، كما أضاف إلى مظهره أشياء جديدة، من بينها إنه يحمل عصا طويلة لا يتوكأ عليها وإنما يحركها في الفراغ، ويضع تحت أبطه كتاباً قديماً بغلاف مهترىء، يمشي بخطوات واثقة وهو يصفّر لحن أغنية (غريبة الروح).

إنتشر خبر ظهوره المفاجيء سريعاً، خرج برياد لإستقباله تتبعه بعض النساء، كل واحدة منهن تقول له تفضل في بيتي... (الله يخليك تعال عدنا).

لكنه فضّل هذه المرة أن يدخل في بيت أم مصطفى، لأنه يعرف إنها ستهاجر مع عائلتها بعد أيام، كلنا نعرف ذلك أيضاً، لأن برياد رفع ساقه وتبول على باب بيتهم.

جلس على كرسي مصنوع من الألمنيوم وشرائط البلاستيك العريضة، حملته له أم مصطفى من داخل البيت إلى الحديقة، رمى بجسده عليه، ومدد ساقيه للأمام، بينما كان يلوّح بعصاه في الهواء، أحاطت به النساء من كل إتجاه، تنحنح ونظر إلى أم مصطفى وشكرها على إستقبالها له ثم قال لها ببرود:

- اتمنى لك وللعائلة رحلة سعيدة، سيطول بقاؤكم في الأردن

بعض الشيء ولكن لا تخافي، بعدها سيكون كل شيء على مايرام، هذه آخر مرة أراك فيها، تسلحي بالصبر وكوني قوية، الغربة دواء مُر لابد من تذوقه، سيبقى طعمه في فمك الى النهاية.

وعندما قاطعته شروق باكية، تبسم لها بخبث وقال لها:

- زواج سعيد مقدماً، إنت اتخذت قرارك وانتهى كل شيء.

لم ينظر إلى وجهها ثانية، في إشارة إلى إنه ليس لديه ما يقوله لها، فهمت هي هذه الرسالة وغادرت على الفور حديقة أم مصطفى وهي تلعن في سرها الساعة التي رأت وجهه فيها.

أمر النساء بالهدوء والجلوس أمامه على العشب، وضع يده اليمنى فوق جبينه يتحسس درجة حرارته ثم صمت دقيقتين وراح ينظر في وجوههن، فتح كتابه ومرر عينه سريعاً على بعض صفحاته، أغلق الكتاب ووضعه جانباً وقال بصوت يخرج من صدره مباشرة:

- ليس لأي منكن مستقبل في هذا المكان إطلاقاً.

وقبل أن تنطلق الهمهمات، سأل إحداهن لا على التعيين عن اسم ولدها البكر وعندما أجابته، ذكر لها اسم رب العائلة واسم أبيه وجده، فتحت فمها متعجبة من قدرته العجيبة على معرفة هذه الأمور الشخصية مع إنها لم يسبق لها أن التقته غير المرة السابقة في بيت جارتها أم نوار، سأل امرأة أخرى السؤال نفسه، فكان الجواب نفسه، غرقت النساء في الصمت وهن يتأملن وجهه وملامحه الوقورة وصمته الطويل بعد كل مرة يتحسس فيها جبهته.

قال لأم نادية قبل أن تسأله: ستهاجرين مع العائلة إلى سورية، سيترككم ابنك الوحيد بعد سنة من إستقراركم هناك ويهاجر بدوره إلى أستراليا، هزت رأسها مستغربة وسألته عن مستقبل ابنتها، فابتسم

لها إبتسامة مريحة لكي يطمئنها ويتهرب من التفاصيل.

قال لأم فاروق: إن ابنك سوف يعتزل كرة القدم مبكراً، ويتزوج في بلاد بعيدة، وإن زوجك سيعود إليك بعد أن يشيخ في العمر ويصبح بدون فائدة.

أخبر أم بيداء بهجرتها ومصير ابنتها، ثم استدار نحو أمي وقال لها:

- إن ابنتك ستحمل معها المحلة أينما ذهبت وتحميها من النسيان.

تحسس جبهته وصمت دقيقتين، عاد يركز في وجه أمي، التي كانت تفكر بمغادرة بيت أم مصطفى في هذه اللحظة، لكنه طلب منها التريث قليلاً بإشارة آمرة استخدم فيها عصاه كأنه عرف نيتها، قال لها بطريقة مسرحية:

- إن ـ المستقبل ـ سينكشف ـ أمامها.

حمل كتابه ونهض تاركاً عصاه تستند على ظهر الكرسي، الذي كان يجلس عليه ودار في الحديقة من دون أن يركز نظره في مكان محدد، وقف خلف النساء اللائي استدرن نحوه ينتظرن منه خبراً عن المجهول، عاد ينظر في وجوههن واحدة تلو الأخرى، أطلق آهة حارة من صدره وتحسس جبينه...

- ليس لأي منكن مستقبل في هذا المكان إطلاقاً.

أعاد عليهن هذه الجملة وراح يضيف عليها:

يعيش الإنسان في هذه الدنيا بقدرين، الأول هو قدره الشخصي، والثاني هو قدره مع من عاش معهم، فالإنسان لا يستطيع أن يعيش لوحده، لكن عليه أولاً أن يعيش، أن يبقى، أن يكون موجوداً ثم سيعثر على آخرين يعيش معهم.

عندما توشك السفينة على الغرق، يفكر المسافر على متنها بقدره الشخصي مباشرة، ويهمل أمر الآخرين، يريد أن ينجو بحياته قبل كل شيء، فيقفز إلى قارب النجاة في أول فرصة، وبعد أن يصل الى الشاطيء، يبدأ بالبحث عن ناس يعيش معهم بقية حياته، ولكنه للأسف سيفشل لأنه سيبقى مشدوداً بقوة الذاكرة إلى غيرهم، إلى أولئك الذين تطور بينهم تاريخه الروحي، لذلك سيبقى غريباً إلى الأبد. هل تعرفون جيداً معنى أن يكون الإنسان غريباً إلى الأبد؟ أن يتنازل عن اللهجة التي تأسس بداخلها تاريخه الروحي؟ هو أن يمضي بقية حياته ضد قوانين هذه الروح، لذلك كانت الغربة وفي كل الأزمان هي غربة الروح، نزاع أبدي بين الجسد والروح يمزق وجوده ويرميه في العاصفة.

توقف المشعوذ في مكانه وراح يترنم لحن أغنية (غريبة الروح)، رددتها معه الأشجار والطيور والهواء وامتلئ المكان بلحن يتسلل إلى أرواح الجميع ويعبث بها، بعد أن انتهى من ترنمه نظر إليهن وعلى وجهه نصف إبتسامة:

أعرف أن هذه المحلة غالية على قلوبكم، والذكريات فيها غالية على نفوسكم، والأرض التي ملأ هواؤها صدوركم هي أغلى أرض في هذا العالم، لكن ماذا ستفعلن والسفينة توشك على الغرق؟

على قوارب النجاة، ستمضون ما تبقى من حياتكم تؤرجحكم الأمواج العاتية في عرض المحيطات، لا شواطيء قريبة تلجؤون اليها، ولا مرافيء صديقة تتوهج مناراتها في لياليكم.

حتى البلاد البعيدة التي ستطؤها أقدامكم، ستعاملكم سلعاً روحية مركونة في مستودع النسيان، سيطول عليكم ليل البكاء، ستدفنون

موتاكم في مقابر أنيقة، يرقدون فيها تحت الورود الصلفة.

الموتى... ربما هم السعداء الوحيدون من بينكم، ستغادر أرواحهم الأرض الغريبة كل مساء لتأتي الى هنا وتطوف في سماء المحلة، سيطرقون أبواب بيوتهم التي عاشوا فيها أجمل سنوات عمرهم، لكن للاسف، سيفتح لهم هذه الأبواب ناس غرباء، ستتنكرهم البيوت بدورها وتنسى أنفاسهم التي طبعت على جدرانها، لكن الموتى لديهم حرية العيش في الزمان والمكان الذين يرغبون بهما، سيجتمعون ثانية عند دكان أبى نبيل كل مساء ويثرثرون حتى تختفي أشباحهم.

لست هنا لأزرع اليأس في نفوسكن، لا تعتقد إحداكن أنني مجرد نذير شؤم أو عصفور نار، أنا أقول إليكن كل ما أعرفه.

أقول ذلك من أجلكم ومن أجل ابنائكم ومن دون مقابل، حتى كلمة شكراً لا أريدها. إن هذا الحصار طويل ولن ينتهي قريباً، وعندما تأتي نهايته، ستبدأ الحرب وبعدها سيتلاشى كل شيء في النسيان.

سينكر الجار جاره، والصديق صديقه، والأخ أخاه، سترمى جثث الناس في الليل للكلاب، وستختنق الأرصفة بالموت، ويدخل الرعب الى بيوتكم من الشبابيك، أنتم الطبقة الوسطى التي عليها يبني المجتمع أركانه، ليس لديكم سلاح تدافعون به عن أنفسكم، أنتم الأرض الحرام لكل حرب، أنتم هدف سهل المنال لكل الأسلحة التي تتقاطع فوق رؤوسكم.

ستعيش محلتكم نهارات جافة بهواء يلفح الوجوه، يتجول فيها الموت مثل ريح عاصفة في قرية مهجورة، سيولد الرعب مع كل غروب للشمس وينام في أسرّتكم، سيظهر الغرباء فجأة من البيوت المهجورة وهم يتحدثون بلغة غريبة عنكم، يطلقون النار بدم بارد

ومن دون أن تطرف لهم عين، ينهمر الرصاص في كل إتجاه، يخترق الأجساد البريئة من دون ضجة، سيمر أحدكم على جثة جاره وهي ملقاة في الطريق، ويتحسس نفسه ويشكر السماء أنه مازال يتنفس، تنفسوا الهواء البعيد قبل أن ينفد الهواء هنا.

صمت قليلاً، نظر إلى الساقية التي من جهة اليسار، تناول عصاه واشار بها إلى نبتات الورد التي تتوزع بغير إنتظام تحركها نسائم خفيفة:

ـ ليس هناك ما هو أكثر وحشة من وردة تتفتح صباحاً في حديقة بيت مهجور.

عاد وتناول كتابه وتوكأ على عصاه من دون أن يكون بحاجة إلى ذلك، نهض وغادر على الفور يتبعه برياد حتى نهاية الزقاق ثم رجع مهرولاً يطأطىء رأسه حزناً.

خيم الصمت على النساء لدقائق خوفاً من المجهول، من المستقبل الغامض، من المغامرة في الرحيل ومن المجازفة في البقاء.

ـ كذاب.

قالت أم فاروق وهي غير واثقة تماماً من كلمتها.

ردت عليها أم مصطفى:

ـ ليس كذاباً، زوجك لن يعود إلا بعد أن تمتص التونسية عافيته وترسله لك في البريد خرقة بالية.

قالت أم فاروق: لا أدري.

قالت أمي: لم يطلب لقاء كلماته ديناراً واحداً فكيف يمكن أن يكون كذاباً!

ـ أجابت أم فاروق: لننتظر ونرى.

ـ قالت أم بيداء: يجب أن لا ننتظر طويلاً.

أعلنت ساعة بغداد الثالثة عصراً، نهضت النساء من أماكنهن وتوجهن نحو أم مصطفى يودعنها بدموع حارة، وهن يأخذنها بالأحضان ثم ينصرفن إلى بيوتهن.

## (١٨)

دخل برياد إلى حلم نادية وقال لها: تعالي معي، رفع ذيله الأبيض وهو يخطو أمامها ودخل الى بيت أبو حسام وتوجه إلى المكان الذي تتمدد فيه ابنتهم ميادة، نظرت نادية في ملامحها ووجدتها ميتة، رفعت كفها عن الأرض وضمته إلى صدرها، مالت ميادة برأسها إلى الجانب الآخر وأغمضت عينيها، تراجعت نادية خطوة إلى الخلف مندهلة من حركة الميتة، ثم تقدمت منها وأخذت كفها ورفعته تتحسس نبضها، حركت ميادة شفتيها وخاطبت نادية:

ـ أجلسيني.

انحنت نادية وساعدتها على الجلوس وأسندت ظهرها إلى إطار سيارة قديم كان مركونا قريباً منها.

ـ من قتلك؟

ـ حسام... أخي حسام.

- لماذا فعل ذلك؟

- قبل أيام راجعت عيادة الدكتور توفيق... هل تعرفينه؟

- لا... أجابت نادية.

- هو طبيب شاب أفتتح عيادته قبل شهرين في رأس الشارع، كانت رقبتي تؤلمني ولم إتمكن من النوم على الجهة اليسرى من شدة الألم، فذهبت إليه، وبعد أن فحصني نظر في عيني وابتسم لي بحنان، ثم ترك لي بشكل متعمد رقم هاتفه المنزلي مع وصفة الدواء.

قررت بعد تردد طويل أن اتصل به، لأنه شاب طيب وأعجبتني إبتسامته، رفعت سماعة تلفون المنزل ووضعت إصبعي عند الرقم ثلاثة، وهو أول رقم من أرقام تلفونه وكاد نفسي أن ينقطع من الخجل والإرتباك، دورت بقية الأرقام الأخرى بصعوبة، رن التلفون في بيته وكاد قلبي أن يخرج من فمي.

- أجلسيني جيداً، إن ظهري يؤلمني.

حملتها نادية وأسندت ظهرها إلى الحائط مباشرة وسألتها:

- ماذا جرى بعد هذا الإتصال؟

- بعد هذا الإتصال، طلب الطبيب أن يراني مرة ثانية، ثم تطورت قصة علاقة بريئة بيننا، لقد أحببته وشعرت معه بالأمان، كان طيب القلب وتعجبني إبتسامته.

في هذه الأيام صرت أقف طويلاً أمام المرآة المثبتة على الجدار في المدخل، أبحث عن نفسي التي أهملتها مدة طويلة، عدت أهتم بشعري الذي أهملته هو الآخر، وأشتريت علبة (ميك آب) جديدة، وصرنا نخرج سوية عندما يكون لديه وقت فراغ.

كنت سعيدة معه حتى نهار هذا اليوم التعيس، ذهبنا إلى المشتل

القريب من المتنزه وإخترت له بعض أصص الورد والنباتات التي أحبها، قال لي إنه سوف يبني لنا بيتاً صغيراً فيه حديقة ولكنها ليست كبيرة، فرحت أنا كثيراً وقلت له: ستكون أجمل حديقة في العالم، يلعب فيها صغارنا، فضحك ووضع يده على كتفي، فسحبت نفسي منه وأنا أكاد أموت من الخجل.

وضعنا النباتات في صندوق السيارة وذهبنا معاً نتجول في المنصور، نزل هو عند مرطبات الرواد يشتري لنا بعض المثلجات وبقيت أنا لوحدي في السيارة، مرّ إلى جانبي حسام في سيارة أجرة وشاهدني أجلس في سيارة توفيق، أغمي علي في الحال من الخوف، لأن حسام عصبي ويحب المشاكل، جاء توفيق بعد دقائق وطمنأنني وقال لي إنه سيأتي بعد غد ليخطبني من أهلي، فرحت كثيراً وقبلته من خده وهذه أول مرة أقبله فيها، صدقيني هذه أول مرة أقبله فيها.

في المساء، جاء حسام إلى البيت غاضباً، ووجدني أغني في المطبخ، قال لي أريد أن اتحدث معك، ولكنني تجاهلته، لانني أعرف إنه يريد أن يبدأ مشكلة، جاء وجرني بقوة من ثوبي:

- ماذا تفعلين بسيارة الطبيب؟

- توفيق يريد أن يتزوجني.

- يتزوجك عند محل مرطبات؟!

- سيأتي هنا بعد غد ويخطبني، سأتزوجه ولن أرى وجهك المكروه ثانية.

أصيب حسام بنوبة هستيريا مفاجئة، وأصبح يصرخ مثل المجنون ويرميني بالصحون والأقداح، ثم أسرع نحو خزانة والدي، أخرج المسدس من الدرج ووجهه إلى صدري.

أصيبت المحلة بصدمة شديدة بعد هذه الحادثة المروعة التي انتشر خبرها وجاءت الشرطة وكشفت على موقع الجريمة، بالفعل كان هذا اليوم يوماً أسود خلّف جرحاً عميقاً في نفوس الجميع.

كل الناس في المحلة، يحبون ميادة المعروفة بطيبتها وحبها لمساعدة الآخرين، فهي دائماً تساعد الأمهات بعد الولادة في تدبير أمور المنزل، وتنتقل في أيام الإمتحانات من بيت لبيت من أجل تقديم دروس مجانية للطلاب والطالبات، وعندما كانت تدرس في كلية الزراعة وحتى بعد تخرجها، ساعدت الجميع في ترتيب حدائقهم وتقديم النصيحة في ما يتعلق بالسماد ونوع التربة وكمية المياه المطلوبة، وإليها وحدها يعود الفضل في أن حدائق محلتنا هي الأكثر إخضراراً وترتيباً من سواها.

كان أبوها مديراً في شركة السكك الحديد، تقاعد من عمله منذ وقت بعيد، أما شقيقها حسام، فقد كان شخصاً غامضاً لا يلتقي أحداً من ابناء المحلة، ولا يسلم على الآخرين، يكره برياد وقد ضربه مرة على فمه بحذائه، وكانت أول مرة يتعرض فيها الكلب المحبوب لإهانة من أحد ابناء المحلة، فراح يصيح من الألم لكنه لم يخبر عمو شوكت بذلك.

كان حسام عصبياً على الدوام، يتقلب في قرارته، تقدم قبل سنوات لخطبة وفاء بنت أم علي ثم فسخ الخطوبة من دون أن يقول لها ولأهلها لماذا أصبح لا يريد الزواج منها، كان يأتي في بعض الأوقات سكراناً، فيسقط في الطريق ويحمله الأولاد إلي بيتهم، ثم نتفاجأ به بعد مدة ليست طويلة، وقد أصبح شديد التدين ويتردد على المساجد كثيراً، يختفي أوقاتاً متباعدة ثم يعود ويوزع بعض الكتب